أطفال السماء

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الإلكتروني

E-mail: unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني وفاء الساطي

صبحي سعيد قضيماتي

أطفال السماء

رواية للفتيان

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة أدب الأطفال (4)
2020

أطفال السماء

روايــة للفتيــان، عــن أطفــال، جمعــتهم ظــروف الاحتلال القاسية الظالمة، فـي مدرسـة لأبنـاء شـهداء فلســطين، فاجتمعــت آلامهــم، وأزهــرت أحلامهــم، وطموحــاتهم فــي تحريــر كــل ذرة مــن تــراب وطــنهم المقدس. أطفال لم تُمِت الآلامُ والجراحُ أحلامهم، بل أجّجتها وارتقت بهم لكي يزدادوا إيماناً وثقة بقدراتهم من أجل أن يكونوا من أمة لها مكانة رفيعة فاعلة، تحت الشمس.. أطفال يرفضون الاحتلال، ويتعاهدون لتكون راية الوطن في قمم المجد.

البطولـة فـي هـذه الروايـة للمكـان (الأرض) التـي يتحـدث أبنـاء الشـهداء باسـمها، لتكـون جـزءاً مـن التاريخ النضالي للمنطقة...

شدة وتزول

أعيشُ الآنَ في دارٍ لأبناءِ الشهداءِ، في فلسطينَ المحتلَّةِ. في بدايةِ العامِ الدراسي الماضي، أوْصَلني والدي إلى بابِ المدرسة. قبَّلني كما لم يقبلني من قبل، ثم ضمَّني إلى صَدْرِهِ وهمَسَ في أذني بشفتين مُرْتَعِشتين: (يا أحمد... أريدكَ أنْ تكون منَ الأوائلِ). نظرتُ إلى عينيه، فرأيتُ غيوماً داكنةً سوداءَ، يُبْرِقُ فيها وميضٌ حادٌّ، يضيءُ وجهَهُ الأسمرَ. عانقني ومضى.. ولمْ أرَه ثانية إلاَّ.. في الأحلام والخيالِ. قالتْ

لـي أمـي بعدَ أيـامٍ، عِبْرَ دموعهـا: (أنـتَ ابـن شـهيدٍ يـا أحمـد). نظـرتُ عبـرَ النافـذةِ فرأيـتُ القمـرَ بـدراً تحيطُـهُ غيـومٌ داكنـةٌ متفرّقَـةٌ. رأيـتُ أبـي يقفـزُ مـن غيمـة إلـى أخرى.. وكأنَّـهُ منهمكٌ في عملٍ مُهِم ..وكأنَّـهُ كانَ في الحقلِ، يسقي شجرات بستاننا وهو يُدَمْدِمُ أغنيةً مرحـةً. خُيِّلَ لـي أنَّنـي ناديتُـهُ حتـى بُحَّ صـوتي. لا أذكرُ كيفَ نمتُ في تلك الليلةِ.. إلاَّ أنَّني أذكرُ أنني استيقظتُ مع أذانِ الفجرِ، لأتابعَ دروسي وأعملَ بوصيَّةِ والدي. وقد حصلتُ على أعلى الدرجاتِ في دروسي كلها، على الرغم من الظروفِ الصعبةِ التي عشناها، بعد رحيلِ والدي. فقدْ وقَعَتْ أمي بين أنيابِ المرضِ... وعانتْ طويلاً من آلامٍ قاسية. كنتُ أنظرُ إليها وأبكي وهي تضمُّ إلى صدرها شقيقتي رشا – ابنة السنواتِ الخمس.

وكانتْ عندما تسمعُ بكائي، تناديني وتَضُمُّني إلى صدرها وتقول: (شدة وتزولُ.. إن شاء الله! شدَّةٌ وتزول!) فإذا اشتدَّ بكائي أنَّبَتْني بحنان وهي تقولُ: (أنت رجلُ البيتِ يا أحمد... وتبكي؟!). تصمُتُ بُرهةً وهي تداعبُ شعري ثم تقول: (البكاءُ لا يطعمُ خبزاً يا بني) وكانَ أملي كبيراً بشفائها.. فقدْ كانَ يزورني، كلَّ ليلةٍ في الحلم، رجلٌ طويلٌ بثيابٍ بيضاءَ ولحيةٍ طويلةٍ... يتوكأُ على عصا، في مرجٍ أخضرَ، تطيرُ فوقَ رأسِهِ حماماتٌ ملوَّنَةٌ، وتحومُ حولَهُ غزلانٌ جميلةٌ، تتقافَزُ بمرَحٍ ورشاقةٍ. أسيرُ معهُ بين الأشجارِ، في مرجٍ يطْفَحُ بالأزهارِ والرياحين. أسمعُهُ يقولُ لي: (أنت حزينٌ... حزينٌ يا أحمد) ويربتُ على كتفي يُطمئنني: (شدَّةٌ وتزولُ يا بني شدَّةٌ وتزولُ) وكنتُ أتابعُ دروسي

بكلِّ ما أملكُ من قوة وأعيشُ مع أحلامي في الليلِ، وأتضرَّعُ إلى الله في صلاتي: يا ربِّ! اشفِ لي أمِّي.. يا ربِّ قفْ إلى جانبِ أمي وأنتَ أرحمُ الراحمين)..

نادتني أمي ذاتَ يوم وقالتْ لي: (يا بني، لماذا لا تخرجُ وتلعبُ مع أترابك... أخرجْ يا بني إلى أصدقائك). قبّلتُ يديها وبكيتُ وأنا أقولُ: (يا أمي... الجنودُ الصهاينةُ منتشرون في كلِّ مكانٍ، يطاردون الأطفالَ من شارعٍ إلى شارعٍ، بالدبابات والسياراتِ المصفحةِ والقنابلِ المسيلةِ للدموعِ... والهراوات..) نظرتْ إليَّ طويلاً ثم قالتْ: (أنت ابن شهيد يا بني.. لا يليقُ بك الجلوسُ في المنزلِ، وأترابكَ يواجهون المحتلَّ بصدورهم.. والحجارة...).. ومنذُ تلك اللحظةِ لم أعدْ أجلسُ في المنزلِ إلاَّ بعدَ العشاء لأتابعَ دروسي. وكنتُ

أتركُ قلبي إلى جانبِ أمي المريضةِ وشقيقتي الهزيلة. ولم تكنْ أمي تَسْمَح لأحدٍ أنْ ينشغلَ بها.. كي لا تكونَ عِبْئاً على أحدٍ. كنتُ أعود إلى المنزلِ فتستقبلني بشوقٍ.. فأجلس إلى جانبها أتنَشَّقُ رائحتَها وأنا أحكي لها عن معاركِنا مع العدو الصهيوني... فأشعرُ أنَّها تصرَعُ المرضَ بابتساماتِ الدَّهْشَةِ والفرَحِ... ذاتَ يوم سألتني عن طموحي: (ماذا تحلم أن تكون في المستقبل يا أحمد؟ طبيب؟ محامي؟) فأجبتُها بنَزَقٍ: (ليش عمْ يتركونا نصير؟..) وأقصدُ أنَّ الصهيونية لا تتيحُ لنا أن نسيرَ إلى أحلامِنا بسلامٍ. فسألتني بغضبٍ: (ومن تقصد يا بني؟).. فأجبتُها بألم وحسرة: (الصهاينةَ الأشرارَ، وهل هناك غيرهم؟) عندئذ رمتني بنظرةٍ تشتعل بعتابٍ ولومٍ وتأنيبٍ: (يا أحمدُ تُؤخذُ الدنيا غلاباً) وما

زالتْ هذه العبارةُ تومِضُ في روحي.. شعرتُ بعدَها أنَّني إلى جانبِ خالدِ بن الوليد. هذا القائدُ الذي قرأتُ عنه الكثير، فيما بعد... وفكرت به كثيراً... وأحببتُهُ حباً لا يوصف. وأظنُّ أن والدي كان يحدثني عن خالد بن الوليد كثيراً، حتى أنني سألت والدي ذات يوم: (لماذا لم تسمِني خالداً يا والدي...) وفهم والدي قصدي. ابتسم وقال: (الأسماء ليستْ كلَّ شيء... واسمكُ أحمد... أتعرفُ من هو أحمد؟) خجلتُ وتمنيتُ أن تنشقَّ الأرضَ لتبتلعني... إلى حدٍّ أنني كدْتُ أبكي من الخجلِ.. ربتَ أبي على ظهري بقوة ليساعدني على الخروجِ من حرجي وخَجَلي وقال: (الرجالُ بزنودها وقلوبها... يا أحمد!). أيقظتني أمي من شرودي وشجَّعتني على الخروج، لألتحقَ بأترابي من الأطفالِ

وأوصتني أنْ أكونَ معهم دائماً. قبَّلتُها وعانقتُها طويلاً، ونظرتُ إلى شقيقتي بعينين تطفحانِ دمعاً. كانتْ غارقةً في نومٍ عميقٍ ترفُّ على محياها ابتسامةُ جذلى. كان بودّي أن أعانقَها... لكن أمِّي مَنَعَتني بإشارةٍ رقيقةٍ من يدها.. ومضيتُ وانضممتُ إلى أترابي وكأنَّني باشقٌ أشتعلُ حماسةً وشجاعةً وإقداماً. وقُبَيْلَ العشاءِ عدْتُ إلى المنزلِ، أحلِّقُ على أجنحةِ الأملِ لأحكي لأمِّي عن معاركنا.. من بعيدٍ رأيتُ منزلَنا وقدْ تحوَّلَ إلى ركامٍ. أخرجوا أمِّي وشقيقتي من بينِ الأنقاضِ. ولم يسمحوا لي بتوديعهما إلى مثواهما الأخير. ومنذ ذلكَ اليومِ أعيشُ في هذا الملجأ، أتابع فيه دراستي، استمدُّ قوتي من وصيةِ والدي، وكلماتِ أمّي التي تلازمني في يقظتي ومنامي.

أحلامنا

جاءني اليوْمَ عمّي ناصر إلى الدارِ. لمْ أرَهُ مِنْذُ زمنٍ بعيدٍ. أظنُّ أنَّني رأيتُهُ آخرَ مرَّةٍ وأنا في الصفِّ الأولِ. انتظرتُهُ طويلاً بشوْقٍ فلمْ يأتِ. سألتُ عنهُ فقالَ لي أبي رحِمَهُ اللهُ: (عمُّكَ يا بنيَ مُعْتَقَلٌ في سجونِ العدو الصهيوني..) كنْتُ أذكرُهُ كثيراً.. وأذكُرُ أغانيه، يعزفُها لي على العودِ وأمّي تُصَفِّقُ لهُ تَصْفيقاً خفيفاً وتميلُ برأسِها طَرَباً وسروراً بعينين طافِحَتين بالفَرَحِ.

عادَ عمي بعدَ غيابٍ طَويلٍ ليجدَني في دارِ أبناءِ الشُّهداءِ. ضَمَّني عمي ناصر وبكى طَويلاً بصَمْتٍ. كنتُ أشْعُرُ بدموعِهِ تَنْهالُ على شعري وتَنْحَدِرُ على عُنُقي. حاولتُ أنْ أتَحَرَّرَ من بين يَديه لأنْظُرَ إلى عينيه لكنَّني لمْ أُفْلِحْ. ثُمَّ رَفَعَ رأسَهُ وقالَ لي بكلماتٍ هادئة: (هيَّا يا أحمد.. سنعيشُ معاً.. أنا وأنت.. سنكونُ صديقين وحبيبين..) لم أجِبْه. نَظَرْتُ طويلاً إلى ساعدِهِ المبْتورَةِ.. إنَّها يدُه اليُمنى التي يَمْسُكُ بها ريشَةَ العودِ ويعزِفُ بها. سألتُ نفسي: (هلْ تَحْتاجُ إليَّ يا عمي؟!) آ هٍ ما أصعبَ الإجابَةِ عن هذا السؤالِ. هلْ أستطيعُ أنْ أحكي لكَ يا عمي عن صديقي عيسى في هذه اللَّحَظاتِ الحميمةِ؟؟ كِلانا في الصفِّ الخامسِ. لقدْ أرسَلَهُ اللهُ إليَ ليكونَ تَوْءَمَ روحي. عندما يَتَحَدَّثُ عيسى

عن آلامِه، أشْعُرُ أنَّهُ يتحدثُ بقلبي وروحي.. وعندما يَحْكي لي عن أحلامِهِ، أشْعُرُ أنّي أقودُ جَيْشاً كبيراً، يَهِبُّ من مكانٍ إلى آخرَ، ليُحَقِقَ العدْلَ والمساواة. آهٍ يا عمي.. لقَدْ زَرَعْنا بأَحْلامِنا العالمَ كلَّهُ وجَعَلْناهُ روضةً كبيرةً واسعةً ليكونَ جَنَّةً لكلِّ طفلٍ ذاقَ طَعْمَ القَهْرِ والظلمِ والحِرْمان واليُتْمِ والمرارةِ. يا عمّي ناصر! أنا وصديقي نَدْرُسُ ونَجْتَهدُ طوالَ النهارِ، وفي المساءِ نمضي مع أحلامِنا نَحْرِثُ ونَزْرَع ونسقي رياضَ أحلامِنا، ونَقْطِفُ ما لذَّ وطاب من الثمار؛ نوزعها على الفقراء والمحرومين والمساكين من أطفالِ هذه الدنيا. هي أحلامٌ يا عمي. نَعَمْ أحْلامٌ.. سنقاتلُ بها أوهامَ الصهاينة الأشرار. بالأمْسِ حدَّثَنا الأُسْتاذُ ماجد عن أوهامِ الصهاينة الأشرار. سألتُه أنْ يَشْرَحَ لنا هذه الكلمةَ

بأسلوبٍ بَسيطٍ فقالَ: (الأوهامُ ـ هي أطماعُ الأشرارِ.. الأطماعُ المُسْتحيلَةُ ـ هي التي نُسَميها أوهاماً..)ونَبَّهنا الأستاذُ ماجد قائلاً : (يا أحبائي.. نحنُ العرب سنحرِقُ أوهامَ الصهيونيةِ بشجاعتنا وتَضْحياتِنا من أجْلِ الإنسانية جَمْعاء) ونحن يا عمي ناصر.. نطيرُ كغيومٍ ونحلّقُ فوقَ السهولِ والجِبالِ والوِدْيان، حينَ نَسْتَمِعُ إلى أستاذِنا ماجد. لو تعرفُ يا عمي ناصر، كَمْ أنا فَرِحٌ بكَ.. عندما اقتَرَبْتَ منّي، غَمَرَتْني رائحةُ أبي فتَبَخَّرَتْ آلامي وأحزاني، وغرَّدَتْ روحي. ولَوْلا شوقي إلى أبي وأمي لغَرِقْتُ في نوْمٍ عَميقٍ وطِفْتُ بِقاعَ الدنيا مع ملكِ الأحلامِ وأنا بين ذراعيكَ. كنتُ أتَمنى أنْ أغوصَ في عينيكَ وهُما طافحتانِ بدموعِ الشَّوْقِ والحُزْنِ والألَمِ، في لحظةٍ تَرْقُصُ فيها الأفراحُ على أنغامِ نَبَضاتِ قلوبِ

الأحِبَّةِ. كنتُ أظنُّكَ أقربَ الناسَ إليَّ ؛ حتى أقربَ من أبي وأمي، عندما كنت تزورنا لتلعب معي وتُغَنِّي وترقُصَ لي. وأحزَنُ وأغْضَبُ عندما كنت تُغادرنا.. وكنتُ أتَمَنّى أنْ تأخذَني معكَ إلى حيثُ أنتَ ذاهبٌ.. لقدْ أحبِبْتُكَ أكثرَ من والدي ووالدتي.. وأُحِبُّكَ الآنَ أكثَرَ. قَطَعَ اللهُ من بَتَرَ ساعدَك وحَرَمَكَ من العَزْفِ على عودِكَ الغالي. أينَ عودُكَ الآنَ يا عمّي ناصر؟؟ أذْكُرُ أنَّهُ كان مُعَلَّقاً على الجِدارِ يُزَيِّنُ مَنْزِلنا الذي أصْبَحَ كَوْمَةً من الأنْقاضِ على يَدِ الصهاينةِ الأشرارَ. وكمْ أتَمنَّى أنْ أمضي معكَ الآنَ إلى حيثُ تشاءُ، لأكونَ خادمِكَ الأمينَ وصَديقَك الحَميمَ ورفيقَكَ الوفيَّ... ولكنْ، كيفَ أتركُ صَديقي وحَبيبي ورفيقَ أحلامي عيسى، وَحيداً في الدَّار؟؟ لا، لنْ يكونَ وحيداً.. فهو مَحْبوبٌ

جداً من زُملائه وأصْدِقائه جميعاً، في الدَّارِ.. لكنَّنا تعاهَدْنا على أنْ نكونَ روحاً وقلبْاً ويداً واحدةً.. نبني ونزْرَعُ ونَجني معاً.. ولنْ يُفَرِقَنا إلاَّ الموتُ. قَبَّلَني عمي في جَبْهَتي وقال مُوَدِّعاً:

– سأزورُكُم دائماً!

وابتسم لي بألَمٍ وقالَ بأسى:

– سأتزَوَّجُ يا أحمد. وأريدُكَ أن تكونَ إلى جانبي.

قَفَزْتُ مُعَبِّراً عن بَهْجَتي هاتِفاً: (ألفُ.. ألفُ مَبْروك يا عمِّي!!) وقَبَّلْتُ عمِّي مُهَنِّئا مُتَمَنِّياً لَهُ التَّوفيق والنَجَاحِ. وقَبْلَ أنْ يَمْضي، انحنى وتناولَ كيساً كانَ إلى جانبِه وهو يقولُ: (هذا لكُمْ جَميعاً) ثُمَّ صافَحَني ومَضى. نادَيْتُه: (عمي! أرجوكَ أن تُسَمِّي أوَّلَ ابن لك (عيسى) على اسم صديقي رَفَعَ يدَهُ تَعْبيراً عنْ عَدَمِ

موافَقَتِـه. اقتَـرَبَ منِّـي ثانيـةً وهَمَـسَ بـأُذُني:(أتَمَنـى أنْ يكونَ ابني صديقاً لأحمدَ وعيسى.. لكما معاً.. سأسمِّي ابني على اسمِ أبيكَ (عمر) ليكونَ أحمدُ وعيسى وعُمَر روحاً وقلباً ويَداً واحدةً، يَزْرَعونَ ويبنونَ أحْلامِنا.. أحْلامَ أُمَّتِنا العربيةِ.

.. وأنا ابن شهيد

بعد أن ودَّعت عمي، عدتُ إلى باحة الدارِ. كان صديقي عيسى جالساً إلى مقعدٍ خشبي قديمٍ، يرسمُ منظراً طبيعياً. راقبتُه طويلاً، حتَّى كَفَّ عن الرسمِ. نظرَ إليَّ، كأنَّه يسألني عن رأيي باللوحة. وحين قرأ إعجابي بلوحته اطمأن. قال لي: (انظرْ – وأشارَ إلى اللوحة – إلى هذا المرجِ الأخضرِ الذي تحيطُهُ الأشجارُ. سأرسُمُ طفلين – أنا وأنتَ – يلعبانِ... فجأةً تخترقُ الدباباتُ الصهيونيةُ المرجَ، تحرقُ وتدمرُ ما حولها. فماذا نَفْعلُ،

أنا وأنت؟) قلتُ بحماسةٍ ودون تردُّدٍ: (سنقاتلُ). نظرْنا، فإذا بالأستاذِ ماجد يقفُ إلى جانبنا منْ غيرِ أنْ نشعرَ. نهضنا احتراماً، لكنَّهُ سلَّمَ علينا كما يسلمُ الآباءُ على أبنائهم. جلسَ معنا ودَعانا إلى الجلوسِ. قالَ كمنْ يعتذِرُ: (لا تستغربا... فأنا أزورُ الدارَ كثيراً.. وأحياناً عندما تكونون نياماً) سألته: (وماذا تفعلُ يا أستاذُ) شعرتُ أنني أوجّهُ سؤالاً خشناً قاسياً لرجلٍ نرى فيه أمَّاً وأباً وصديقاً. تمنيتُ أنْ لا يجيبَ عن هذا السؤالِ الذي يفتقرُ إلى الأدبِ واللَّباقَةِ... أخذَ الأستاذُ ماجد يحكُّ رأسَهُ بسبابته وينظرُ إلينا وعيناهُ تَنْضَحان ودّاً غزيراً وهو يبْحَثُ عنْ جوابٍ مناسبٍ مقنع، ثم قالَ ببساطةٍ: (هذا بيتي أيضاً. ألا تعرفون أنني أنا أيضاً ابن شهيدٍ؟؟ ونحنُ إخوةٌ.. لكنَّني الآنَ بمقامِ والدِكم)... ثم أشارَ

الأستاذُ إلى ساقِهِ: (في هذه الساق أربعُ رصاصاتٍ، وفي هذه الساق رصاصتان. وهنا – وأشارَ إلى خاصرته اليمنى – دخلتْ رصاصتان وخرجتا. أربع مرات كدتُ ألتحقُ بموكبِ الشهداءِ. لكنْ لمْ تُكْتَبُ لي الشهادةُ لأتعرَّفَ إليكم...) ثم صَمَتَ برهةً وهو ينظرُ إلينا وقال: (... في النهاية.. كلُّنا شهداءٌ حتَّى نحققَ النصرَ الكامِلَ...)... صمتَ وهو يحدِّقُ إلينا... ثم قالَ بفخرٍ: (أكرَمَنا الله بالشهادة... وكلٌّ منْ يقاتلُ في سبيلِ الحقِّ – هو شهيدٌ)... ثم تناولَ الأستاذُ ماجد اللوحةَ منْ يدِ عيسى وراحَ يتأملُها. شعرتُ أنَّهُ دخلَ إلى عالمِ اللوحةِ التي رسمَها عيسى... واختفى بين أشجارِها وظهرَ ثانيةً يتجوَّلُ من مكان إلى آخرَ. تنهَّدَ بعمْقٍ وقالَ: (كنّا نعيشُ في قريةٍ خضراءَ كأنَّها جنَّةٌ من جنان

الله... أذكرُ أنِّي كنتُ مع جدي(لأمي) وأبي نقطِفُ الرمَّانَ من بستاننا. كان جدي وأبي يقطفانِ الرمانَ وأنا ألعبُ مع خروفٍ أبيضَ كان ينطحني ويرميني أرضاً... ثم يدورُ حولي كأنَّهُ يدعوني إلى منازلته.. فأحملُ عوداً وأطارده.. يبتعدُ عني وينظرُ إلي كأنَّهُ يتحداني أن ألحقَ به. وكانتْ أمُّه النعجةُ تثغو بين الفينةِ والأخرى كأنَّها كانتْ تحذِّرُهُ من إيذائي. وعندما كان يتعبُ، يستلقي في الظلِّ... فأقتربُ منه وأستلقي إلى جانبه وأضعُ رأسي على ظهرِهِ الصوفي الناعمِ... نغفو معاً... وكنَّا نحلمُ معاً... ونلعبُ في الأحلامِ معاً، ونمضي إلى أماكنَ بعيدة... وكنَّا كلَّ يوم نزورُ مكاناً جديداً. كنتُ أتصورُ أني سأعيشُ عمري كلَّهُ مع خروفي وأمِّهِ التي ستلدُ لنا خرفاناً كثيرة، فيصبحُ لدينا قطيعٌ كبيرٌ من

الخرفان.. أرعاها وأدورُ بها من مرجٍ إلى مرجٍ، ومن جدولٍ إلى جدول.

كان أبي دائمَ الاستماعِ للمذياع. وذاتَ يومٍ بينما كنَّا نستعدُ لتناولِ الغداء ونحنُ في البستان، التصَقَ والدي بالمذياع وطالَ استماعُه. كنتُ أراقبُ وجههُ وعينيهِ وكأنَّهما غيومٌ في وجهِ رياحٍ عاصفةٍ.. ثم نهضَ أبي وراحَ يرقصُ ويهتفُ: (الله أكبرُ! يا الله يا الله! النصر! يا الله النصر!) ثم اقتربَ منِّي وهزَّني بعنفٍ: (الحربُ.... قامتْ الحربُ يا ماجدُ.... لقدْ هبَّ العربُ لاستعادة حقوقِهم من الصهاينةِ الأشرارِ....) استيقظتُ في الصباحِ ولمْ أجدْ والدي.... ومضيتُ إلى البستان مع جدِّي... لا أدري، لماذا لم أسألْ عن أبي. كنتُ أنظرُ إلى عيني جدِّي وأراقبُ حركاته وأنا أتساءل: أين

هو والدي الآنَ؟؟. لمْ يعدْ جدي ينامُ باكراً كعادته بعدَ صلاة العشاء. كان يشربُ الشايَ ويستمعُ إلى المذياعِ مع والدتي... وكانت أشدَّنا فرحاً، رغم غيابِ أبي. عرفتُ بعد ذلك أن أبي يحاربُ الصهاينة... في الجبهةِ. وكانتْ أمي ترافقنا أحياناً إلى البستان وهي تحمل أخي الرضيع، تَضَعُهُ تحت ظلِّ شجرةٍ، لتساعدَ جدِّي في أعمالِ البستان. لم أعدْ ألعب مع خروفي إلا نادراً (وحتى الآن، عندما أرى خروفاً صغيراً، أطيرُ فرحاً، لكنَّ قلبي يذوبُ حزناً وأسى) كان جدي يزدادُ حيويَةً ونشاطاً، يوماً بعد يومٍ وهويستمعُ إلى المذياعِ ويحمدُ الله بصوتٍ عالٍ كمنْ كان يبشِّرني بانتصاراتِ العربِ في الحربِ على الصهاينة الأشرار. لمْ يتجاوزْ عمري في تلك الأيامِ ست سنوات. لم يعدْ والدي من

الحرب. ومع بدايةِ العامِ الدراسي جاءَ بي جدي إلى هذه المدرسة. كنتُ أدرسُ في الشتاءِ وأسافرُ في الصيفِ أساعدُ جدي وأمي في أعمالِ البستان.... وعرفتُ بعد مدة أنَّ والدي كان من شهداء حرب تشرين التحريرية التي حقَّقَ فيها العرب انتصارات عظيمة على الصهاينة الأشرار. نظر الأستاذُ ماجد إلى ساعته.. ثم هبَّ واقفاً معتذراً:

– حان وقت عشائكم... سنلتقي غداً للحديثِ عن حربِ تشرين التحريرية التي هزَّتْ الكيانَ الصهيوني وكادتْ تُحَقِّقُ النصرَ الأكبَرَ للعربِ.. لولا.....

ثمَّ تَنَهَّدَ بألمٍ وأسى مودعاً دون أن يكمِلَ جملتَهُ الأخيرةَ.

رسالة إلى خالتي

استلمَ صديقي عيسى رسالةً، عرفتُ أنَّها من خالتهِ في الولايات المتحدة الأمريكية.. وتابعتُهُ وهو يقرؤها غير مرةٍ....كان يقرؤها ويتأملُ الرسالةَ طويلاً، ثم يسرحُ بأفكارهِ في الأفُقِ البعيدِ.. لمْ أعرِفْ ما إذا كانَ صديقي حزينا أمْ سعيدا بهذه الرسالةِ. ولمْ أسألْهُ عن مضمونِها خَوْفا من إحراجه أو جَرْحِ مشاعرِهُ. ثم اختفَتِ الرسالةُ من بين يديه أكثرَ من أسبوعٍ، ظَنَنْتُ أنَّهُ مزَّقَها أو خبَّأها. وكدْتُ أنْساها لو لمْ يقترِبْ منِّي عَصْرَ هذا اليومِ، ليقدِّمَ لي رسالةً، عَرَفْتُ أنَّ عيسى كتبَها إلى

خالتِهِ، ويطْلُبُ مني أنْ أُبْدي رأيي فيها. أخذتُ الرسالةَ وأنا أنظرُ إلى عينيه. شَعرتُ أنَّهُ يُعطيني أغلى ما يَمْلُك.. ثم ابتعدَ صاحبي عني.. بدأتُ أقرأ الرسالةَ باهتمام وأتابع سطورَها بشغفٍ:

خالتي الحبيبة!

أدامكِ اللهُ ورعاكِ!

قرأتُ رسالتَكِ غيرَ مرةٍ.. وغفوْتُ وهيَ على صَدْري، كما كنتُ أغفو على صدرِك أحياناً... فأخذَني ملكُ الأحلامِ على أجنحتِهُ الرحبْةِ الواسعةِ، وطفْتُ مَعَهُ في كلِّ مكانٍ زرْناه معاً.. ثم جَلَسْنا في مرْجٍ أخضْرَ يَطْفَحُ بالورود ويعبقُ بالشَّذا، كأنَّنا كنَّا في بستاننا الحبيبِ، الذي سَرَقَهُ منَّا الصهاينةُ الأشرارُ. من بعيدٍ رأيتُ القَمَرَ بدراً كبُرْتُقالةٍ كبيرةٍ، يَسْتَرِقُ النظَرَ إلينا من

بينِ الأغْصانِ، لينْصُتَ إلى أحاديثنا. كان جدّي رَحِمَهُ الله، يعشقُ البدرَ. كان يناديني ويسألني مشيراً إلى البدْرِ:(هل رأيتَ البدرَ راقِصاً يا عيسى؟) ثمَّ يَضُمُّ رأسي إلى رأسِهِ، ويميلُ بي يُمْنةً ويُسْرَةً ونحنُ ننظُرُ إلى البَدْرِ يَتَراقَصُ بين الأغصانِ... ويسألُني:(هل تسمعُ غناءَ القَمَرِ؟).. فأجيبُهُ بسذاجَةٍ: (لا!) فيَضُمُّ رأسَهُ إلى رأسي ويقولُ لي: (انصتْ) فأصغي.. فلا أسمعُ إلاَّ وشوشاتٍ تأتيني من بعيدٍ، تُدَغْدِغُ صَدْري وتُداعِبُ سَمْعي.

منذُ أيامٍ شاهدتُ نفسي في الحُلْمِ أَتَوَسَّدُ البدْرَ كأنَّهُ كُرَةٌ كبيرةٌ أتَّكِئُ عليها. كان البدرُ ليّناً طَرِيّاً ودافئاً، يَعْبَقُ برائحةٍ منعِشَةٍ. يقولُ العلماءُ إنَّ القمرَ صحارى وجبالٌ، ليسَ فيها حياةٌ، فكيفَ جَعَلَهُ ملكُ الأحلامِ طريّاً، ليّناً دافئاً ومُنْعِشاً على هذهِ الصُّورة السَّاحرَة؟؟ آهٍ يا ملكَ

الأحلامِ وأنتَ تُهْديني أَجْمَلَ ما أتَمَنَّاه.. ليتَني أستطيعُ تقْديمَ هذا البدرِ السَّاحِرِ إلى جدّي. سأحمِلُهُ على كَتِفي – هكَذا فكَّرْتُ في الحُلُمِ – كما أحملُ البَطِّيخةِ، إلاَّ أنَّهُ كانَ كبيراً جداً، بحَجْمِ عَشْرِ بطيخاتٍ. لكنَّني حملتُهُ.. كان خفيفاً جدّاً. رُبَّما كانَ هو الذي يَحْملُني ويطوفُ بي، ويبْحَثُ معي عنْ جدّي. كانَ قلبْي يُناجي ويهتِفُ: (يا ملك أحلامي جِدْ لي جدّي... فأنتَ أشْطَرُ من خاتمِ سُليمانَ بألفِ مرَّة ومَرَّة...) رأيتُ جدي.. وكأنَّهُ كانَ يبحثُ عنّي وعنْ والدي وأمّي. كان حزيناً قَلِقاً. تَصَوَري يا خالتي، لمْ أرَ جدّي حزيناً قطْ. كانتْ بَسْمَتُهُ أجْمَلَ منِ البدرِ التَّمامِ نَفْسِهُ، وضِحْكَتُهُ أحلى من أنغامِ العصافيرِ وهَمْسِ الجَّداوِلِ. لمْ أرَهُ حَزيناً حتَّى عندما شاهَدَ الجُنودَ الصَّهاينَةَ يحْرِقونَ بُسْتانَنا ويُدَمّرونَ

مَنْزِلَنا ويَغْتالونَ أبي أمامَ عينيه، لأنَّ أبي قَتَلَ مُسْتوطِناً صَهْيونياً تَسَلَّلَ إلى بُسْتانِنا في ليلةٍ ظَلْماءَ، معَ لصوصٍ آخرين. وبعدَ مَعْرَكَةٍ طويلةٍ أُصيبَتْ أمي بطَلْقٍ ناري وارْتَمَتْ على الأرضِ، وكُنْتُ إلى جانبها. نَظَرَتْ إليَّ ومَسَحَتْ وجْهي بكفِّها المُدَمَّى وأغْمَضَتْ عينيها إلى الأبَدِ. في ليلة واحدة فَقَدْتُ أمي وأبي.. ولمْ أرَ جدِّي حزيناً، وهو يرى ابنَهُ الوحيدَ قتيلاً، إلى جانبِ أمي. قالَ لي جُمْلَةً واحدةً: (اسْتُشْهِدَ والدُكَ وأمُّكَ دفاعاً عن الأرضِ) فَكَفَفْتُ عنِ البُكاءِ وأنا أرى أبي وأمي مُعَفَّرينِ بالتُّرابِ، مُضَرَّجَين بالدِّماءِ...كأنَّ اللهَ أدْخَلَ السَّكينةَ إلى نفسي وصوَّرَ لي أبي وأمي ملاكين ترافِقُهُما العَذْراءُ عليها السَّلامُ، إلى جنانِ الخُلْدِ.. لكنَّ قلبي لنْ يَكُفَّ عن البُكاءِ، ألَماً وحُزْناً على أمي وأبي الحبيبين. وكان جدِّي

كلَّما كان يزورني في الدَّار، يقولُ لي: (أمُّكَ وأبوكَ يُقْرِئانك السَّلامَ يا عيسى) فأراهما أمامي كَما كنتُ أراهما يَعْمَلان معاً في البستان، وأعيشُ مَعَهُما لحظاتٍ قصيرةً فأشْعُرُ أنَّني أتَعَمَّدُ برائحتِهما الزَّكية، فأغدو غيمةً تُعانقُ بقَطْرِها الورودَ والأغصانَ والمروجَ. ويُوَدِّعني جدِّي وأنا أرى البدرَ يَتَمايَلُ فوقَ وجْهِهِ.. لكنَّني رأيتُهُ بالأمْسِ حزيناً في الحُلُمِ، يَبْحَثُ عن والدي وأمي. ربَّما لأنَّني لم أحْصَلْ على الدَّرَجَةِ التَّامَة في مادةِ الرياضياتِ؟ كنْتُ مريضاً ولمْ أدرُس قبْلَ الاختبارِ... رُبَّما كان حزيناً عليَّ.. لأنَّني كنتُ مريضاً؟ لا أدري!

خالتي الحبيبة! أذْكُرُ أنَّكِ سافرْتِ إلى أمريكا وأنا في الصفِّ الأوَّلِ. وأذْكُرُ أنَّنا كنَّا في العُطْلَةِ الانْتِصافيةِ حين سَطا اللُّصوصُ الصهاينةُ على بُسْتانِنا وقتلوا أمي

وأبي. ومنذُ أمسِ ذلكَ الحين لمْ أسمعْ عنْك خبراً. كيفَ اهتَدَيْتِ إلى عنواني؟؟وكيفَ عرَفْتِ مكاني؟؟ أعيشُ الآنَ في دارِ أبناءِ الشُّهداء.. وأنا في الصفِّ الخامِسِ، وعندي العديدُ من الأصدقاءِ والأخوةِ.. ومِنْهُمْ صديقي وأخي الحبيبُ أحمد، ومهيار وياسر...

خالتي الحبيبة، أرجوكِ.. لا تحاولي أخْذي إلى أمريكا! فهلْ أستطيعُ العيشَ في بَلَدٍ يُساعدُ حُكَّامُهُ اللصوصَ الصهاينةَ، الذين قتلوا أبي وأمي، وسرقوا أرضي؟! بالأمْسِ كَتَبَ الأستاذُ ماجد هذه العبارة على السبُّورَة :

((أنا سَمَكَةٌ.. لا تعيشُ إلاَّ في الماءِ!))

وطَلَبَ منَّا أنْ نُعَلِقَ على هذه العبارةِ.. وأنا يا خالتي طيرٌ لا يعيشُ إلاَّ في فضاء بلادِهِ!

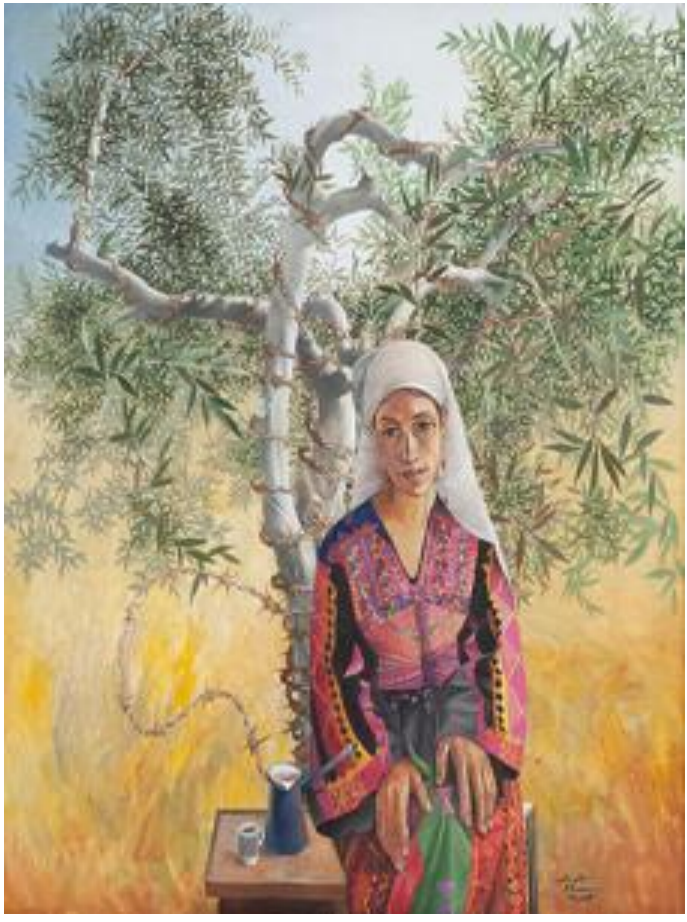

ذكريات الجدة

قـالَ لنـا الأسـتاذُ ماجـد قبـلَ أن يودِّعنـا: (أنـتمْ مـدعوون غـداً إلـى حَفْـلِ عيـدِ مـيلاد... سـنَنْطَلِقُ بعـدَ انتهـاءِ الدُّروسِ مباشرة). فكَّرْنا – أنا وصديقي عيسى: (إذنْ علينـا أن نقـدِّمَ هديـةً، مَهْمـا كانـتْ هـذه الهديـةُ متواضـعةً، لأُسـتاذِنا وصـديقنا الحبيـب ماجـد) قـال لـي عيسى: (ليس لدينا إمكانيةٌ إلا أن نرْسُمَ له لوحةً نقدِّمُها إليه... فهويحبُّ الرَّسمَ كثيراً) ثم بدأنا نفكِّرُ باللوحةِ التـي سنرسمُها... وفكَّرْنا طويلاً ولم نهتدِ إلى ما نريدُ. وأخيراً

قالْ لي عيسى: (ما رأيُكَ في أنْ نَرْسُمَ مقاتلاً غاضباً، يطاردُ شارونَ – ينظرُ إلى الخلفِ وهو يَتَمَزَّقُ خوفاً وهلعاً) أعجبتْني الفكرةُ... وعيسى ماهرٌ في الرَّسمِ. وأعجبتني اللوحةُ بعد التنفيذِ. وتمنيتُ أنْ تكونَ لديَّ لوحةً مثلها.

قالْ لي عيسى وكأنَّه قرأ ما أتمناهُ في عينيَّ: (سأرسُمُ لك لوحة مثلها... لكنَّني آملُ أنْ ترسمَ أنت لوحةً تعبِّرُ عن الفكرةِ نفسِها).

قلتُ له: (لا أستطيعُ) فذكَّرَني ببيتين من الشعرِ:

لا تقلْ لا أستطيع لا تقلْ هذا محال

كيف ترضى تضيع كغريق في الرمال!

قلتُ لـه: (ظهرتْ لديَّ فكرةٌ أنْ نرسمَ عدداً من أطفالِ العالم وهم يرجمون شارون، عقاباً لهُ على جرائمه الوحشية) فقالَ لي مشجعاً: (إنَّها فكرةٌ رائعةٌ... لكنَّها ستكونُ أروعَ بعدَ التنفيذِ) ولمْ ننمْ حتَّى أنهينا اللوْحتين. لم تعجبْني لوحتي.. لكنَّ عيسى فَرِحَ بها جداً... وقالَ لي: (أنتَ فنانٌ... لكنَّكَ لا تدري) وسألني: (لماذا ثقتُكَ ضعيفةٌ بما ترسم؟) لمْ أجدْ جواباً على سؤاله، على الرغم من أنَّهُ نَظَرَ إليَّ طويلاً ينتظرُ مني جواباً ما على سؤاله.

في اليومِ التالي انطلقنا معَ الأستاذِ ماجد. وصلنا إلى منزلٍ قديم، كنَّا عشرة أطفال. فتحتْ لنا البابَ عجوزٌ طاعنةٌ في السنِّ... نحيفةٌ، متماسكةٌ في وقفتها. رحبّتْ بنا وقبَّلَتْنا جميعاً... ثمَّ عانقها الأستاذُ. دخلنا

جميعاً إلى غرفةٍ واسعةٍ وجلسنا حولَ طاولةٍ مستديرة. سألَنا الأستاذُ: (هل عرفتم الجدة؟) أجاب عيسى بسرعة (نَظُنُّ أنَّها والدتُك). تبسَّمَ الأستاذُ وقالَ: (إنها جدتي الحاجة أمُّ بشَّار) فنظرْنا إليها جميعاً بدهشة وإعجابٍ، إذ لا يبدو عليها أنَّها كبيرةٌ جداً. سألنا الأستاذُ (... من يقدّر، كمْ عمرها؟؟) صَمَتْنا جميعاً والجدةُ تنظرُ إلينا كأنَّها تنتظرُ جواباً مناسباً. وبعدَ أنْ طالَ صمتُنا أجابَ الأستاذُ عن السؤال بنفسِه: (عمرها أكثر من مئة سنة) ففاضتْ عيونُنا بالدهشةِ والعجبِ. احتجَّتِ الجدةُ بلهجةٍ مَقْدِسيةٍ واضحةٍ: (لا يا حبيبي ماجد.... لم أبلغْ التسعينَ بعد) عندئذ سألها الأستاذُ مازحاً (هل تحسبينَ عمرَك بالسنةِ القمرية أم بالسنة الميلادية؟). لم تجبِ الجدَّةُ. كانتْ تنظرُ إليه بودٍّ وحبٍّ غامرين، ثم توجَّهَ

إلينا الأستاذُ وقال: (كان زوجُها – جدي – من مرافقي عزِّ الدين القسَّام – إمام المجاهدين. لو سألناكمْ سؤالاً: أينَ وُلِدَ الشهيدُ عزُّ الدين القسَّام، رحمه الله وطيّب ثراه؟) وعجزنا جميعاً عن الإجابة... فأجابَ الأستاذُ عنا: (وُلد الشهيد القسام في مدينة جبلة التابعة لمحافظة اللاذقية السورية عام 1880... وكان في طليعة المجاهدين الذين قاتلوا الاستعمار البريطاني والصهاينة في فلسطين.. واستُشْهِدَ البطلُ عزُّ الدينِ القسَّام في عام 1935 في معركةٍ قُرْبَ جنين تسمى (أحراش يَعْبُد) في العشرين من تشرين الثاني... واستشهدَ إلى جانبه الشيخُ الحنفي من أرضِ الكِنانة وآخرون من أقطارٍ عربيةٍ أُخرى، هبوا للدِّفاعِ عنْ فلسطينَ وأرضِ العربِ... ثم أشارَ الأستاذُ إلى صورةٍ

قديمةٍ معلَّقَةٍ على الجدارِ... وَدَعانا إلى الاقترابِ منها؛ فاقتربنا وبدأنا ننظرُ إلى فارس يمتطي حصاناً عربياً والسيفُ إلى جانبه الأيسَرِ؛ والبندقية إلى جانبه الأيمن. رأيتُ الفارسَ ينظرُ إلينا مُبْتَسماً كأنَّه يُرَحِّبُ بنا. لكنَّني شعرتُ بأنَّ عينيه باشقان يبحثان في الفضاءِ عن صيدٍ ثمين. وأخبَرَنا الأستاذُ: (هذا جدي. زوجُها). وأشارَ إلى جدَّتِه. ثمَّ انتقلنا إلى صورةٍ ثانية لامرأة شابةٍ ليخبرَنا الأستاذُ: (هذه هي جدتي في شبابِها... وسنحتفلُ اليومَ بعيدِ ميلادها) ثم عانقها وقبَّلَها مهنئاً. وعدْنا إلى الجلوسِ. كانتِ الجدَّةُ قد وضعتْ إبريقَ الشاي على الطاولة وإلى جانبه صحنٌ كبيرٌ طافحٌ بالكعك. لمْ تنقطعِ الجدةُ عنِ الترحيبِ بنا. وكنتُ أتأمَّلُ حركاتها وهي تصبُّ الشايَ... وتقدم الكعكَ لنا. لم نعرفْ عُمْرَ

الجدةِ، لكنَّها كانتْ متماسكة في حركاتها وحديثها. قالَ لها الأستاذُ: (يودُّ الأطفالُ أن تحكي لهم عن عزِّ الدين القسَّام... وعنْ جدِّي...) تنهدتْ بعُمْقٍ وسحبتْ نَفَساً عميقا وهي تقولُ: (ذكرياتٌ أصبحتْ بعيدةً. أرى الآنَ أطفالنا – طيورَ الجنَّةِ... رجالَ المستقبلِ... منذُ فتحتُ عينيَّ على الحياةِ ونحنُ نقاتلُ الإنكليزَ والصهاينة. رحمه الله أبو بَشَّار– زوجي... جاءني في الليلِ – بعد منتصف الليل بكثير.. كان يوماً ممطراً.. نظرتُ إلى عينيهِ ؛ كانتا حمراوين.. يَشْتَعِلُ غَضَباً وحُزْناً، سألته ما بك يا (أبو بشَّار) خيراً؟.. فقالَ لي والغَصَّةُ تحرِقُ صدرَهُ: لقد استشهدَ القسَّامُ. ثم بكى طويلاً. ولم يخرجْ إلاَّ في اليوم التالي. وكانَ عندي سبعة أطفال.. قبّلَهُمْ جميعاً كعادته.. وخرجَ ولمْ أرَه ثانية.

وعْكَةٌ صحيةٌ

عُدْنا إلى دارِ أبناءِ الشهداءِ، لكنَّ الجَدَّةَ أمَّ بَشَّار، ظَلَّتْ تطوفُ في فضاءِ روحي، وتسيرُ إلى جانبي، في كثيرٍ من الأحيان، وتجلسُ قُرْبي عندما أحَضِّرُ دروسي، وتساعدُني إذا ما احتجتُ إلى مُساعدة.

يُراقبُني عيسى، ويبتسمُ عندما يَشْعرُ أني أفكِّرُ بالجدةِ أمِّ بشَّار، وأتحدثُ إليها في خيالي، وكأنَّها إلى جانبي حقيقةً. كانتِ الجدةُ أمُّ بشار قليلةَ الكلامِ، بلْ أنَّها تميلُ إلى الصمْتِ. كانتْ تراقبُنا بشَغَفٍ وتسمعُنا

بقلبٍ يَنْفَطرُ حُبّاً وإعجاباً وشوقاً. في تلكَ اللحظات، تصورتُ أنَّ الحبَّ بحرٌ واسعٌ لا تحدُّهُ حدودٌ، والجدَّةُ بحّارٌ، يتهادى بقاربِهِ الشراعي، المزين بألوانِ قوس قزح، على أمواجِه الهادئةِ الحالمةِ، ويغنّي للكائناتِ أجملَ أغانيهِ السَّاحِرَةِ. أمَّا أنا، فقدْ صرتُ نوْرَساً، يرافُقُ الجدةَ في رحلتها الرائعةِ تلك. كمْ تمنيتُ أنْ أكمِلَ المشْوارَ معها، في ذلكَ البحرِ البديعِ ؛ لكنَّ الأستاذَ أيقظني من حلمٍ جميلٍ، أخذَني إليه أميرُ أحلامي. ودَّعَتْنا الجدة أمُّ بشار كما تودِّعُ الأمُّ أبناءَها إلى المدرسة. وَدَعَتْ لنا بالتوفيقِ والنجاحِ. ورَفَعَتْ يديْها إلى السماء تَتَضَرَّعُ إلى الله:(ربَّ لا تحرمني منهمْ يا رب)... وها أنا أفكِّرُ بها قبلَ النومِ طويلاً... وأسرحُ بأفكاري بعيداً، فأتصورُ نفسي مكانَها عندما جاءَها زوجُها أبو بشار يبكي ألماً

وحزْناً على رحيلِ إمامِ المجاهدين عزِّ الدين القسَّام، بعد معركةٍ طويلةٍ قاسيةٍ ضدَّ المستعمرين. تُرى، إلى أينَ مضى في تلكَ الليلةِ الماطرةِ، بعدَ خروجه من بيته؟ وهلْ نجحَ في تحقيقِ ما خرجَ في سبيلِهِ؟؟ كيفَ ودَّعَتْ أمُّ بشار زوجَها في آخرِ لقاءٍ جمعهما؟ أسئلةٌ عديدةٌ كانتْ تحومُ حوْلَ رأسي كخليةِ نَحْلٍ. وهلْ تنتهي حكايةُ الجدَّة بيومٍ أو يومين أو ثلاثة؟ وأنا أعرفُ أنَّ الأستاذَ (ماجد) لن يجيبني عن هذه الأسئلة، إذا سألتُه إيَّاها. فَمِنْ أقوالِهِ المأثورةِ: (السؤالُ المناسبُ في الوقتِ المناسبِ). لكنَّهُ ينظرُ أحياناً في عيونِنا، ويميلُ برأسِه يمنةً ويسرةً وكأنَّه يَبْحَثُ عن شيءٍ في مآقينا، حتَّى يَعْثَرُ على السؤالِ، ويسْحَبُهُ كما تُسْحَبُ الشعرةُ من العجينِ، ويجيبكَ عليه من غير أن تدري. كيفَ أصِفُكَ

يا أستاذُ ماجد؟! يكفيكَ فخراً أنَّكَ حفيدُ أمّ بشَّار (زوجةُ رفيقِ عزِّ الدين القسَّام في الجهادِ). وتبدو لي أحياناً كطفلٍ، أصغرَ سناً منّا، يحتاجُ للرعايةِ والعطفِ والمحبةِ واللَّعِبِ. وتارة تبدو لي حكيماً بلحيةٍ طويلةٍ بيضاءَ كالثلجِ، تتوكأُ على عصاكَ في مرجٍ أخضرَ، ترافقكَ أسرابُ العصافيرِ جذلى، وتستقبِلُكَ الأزهارُ نشوى. وتارةً أراكَ قائداً عسكرياً تهتزُّ الأرضُ تحتَ أقدامِك الواثقةِ. وتارةً أراكَ غيمةً تبحثُ عن روضةٍ لتعانقَ براعِمُها وتغْسِل عنها غبارَ التَّعَبِ والأحزانِ. قالَ لي صديقي عيسى: (ما رأيكَ في أن نطلبَ من الأستاذِ ماجد أنْ يأخذنا ثانيةً إلى الجدةِ؟ كدتُ أطيرُ فرحاً لهذا الاقتراحِ... وبعد نهايةِ الحصَّة الأولى، تقدَّمْنا من الأستاذِ ماجد وسألناه أنْ يسمحَ لنا بطلَبٍ، فرد علينا

مباشرةً: (الجدةُ أمٌّ بشار تقرئكمْ السلامَ جميعاً) وأشارَ بإبهامِهِ محذِّراً: (... وتذكّرُكمْ بأنَّها لا تحبُّ الكسالى) وانصرفَ قبْلَ أنْ يسمعَ كلمةً واحدةً منا. تأمَّلني عيسى طويلاً، ثمَّ صفّقَ بكفَّيْهِ صفقةً واحدةً وقال: (من قالَ هذه العبارةَ: (يفْهَمُها وهي طائرةٌ أي قبلَ أنْ تَحطَّ على الأرضِ)؟. والأستاذُ ماجد يفهمُها قبلَ أنْ تطيرَ). وفي الحصَّةِ الأولى من صباحِ اليومِ التالي، وقفَ الأستاذُ ماجد وتفحَّصَنا بنظراتٍ عميقةٍ ونحنُ جالسون على مقاعدنا. ومن عادته أن يبدأ الدرسَ مباشرةً... لكنَّه في هذه المرة نَظَرَ إلينا طويلاً كأنَّهُ كانَ يبحثُ عن كلماتٍ مناسبةٍ. كانَ يحكُّ فوْدَيْهِ وهو ينظرُ إلينا. وأخيراً ألقى علينا تحيةَ الصباحِ ثانيةً وقالَ: (أصدقائي وأحبائي، أبناءَ شهدائنا الأبرار. أنتمْ أمانةٌ في أعناقنا. ونحنُ

ندرسُ كلَّ خطوةٍ، دراسة طويلة ودقيقة، للحفاظِ على حياتِكُم، قدوةً، يُضْرَبُ بها المثلُ، في الجدِّ والاجتهادِ. ومن لا يريدُ أن يكونَ قدوةً، فلا يستحقُ أنْ يكونَ ابنَ شهيدٍ. وابنُ الشهيدِ مرتبةٌ لا يرتقي إليها إلاَّ الأخيارُ الأقوياءُ الأبرارُ. فلنكنْ أوفياءَ لشهدائنا.. وفهمكُم كفايةً).

لم أستطعْ تناولَ طعام الغداء. وفي المساءِ شعرتُ بإرهاقٍ شديدٍ. لمسَ عيسى جبْهَتي وقالَ: (حرارتُكَ مُرْتَفِعَةٌ يا أحمدُ...).. قلتُ: (لا بأسَ.. سأتَحَسَّنُ.. وكما كان يقول جدي: (شدةٌ وتزولُ)... لكنَّ عيسى لم يطمئنَ على وضعي.. فهرعَ إلى الإدارة وأخبرَها، وعادَ.. ثمَّ أخذَ بيدي وسارَ بي إلى السرير.. وأجبرني على الاستلقاءِ في السرير. أغمضتُ عيني وكدتُ أغفو.

سمعتُ خطوات.. ثم رأيتُ الطبيبَ. شعرت بارتفاعِ حرارةِ جسمي. ولا أذكرُ كيفَ نمتُ في تلك الليلةِ. استيقظتُ. كانتِ الساعةُ العاشرةَ صباحاً. أوَّلَ مرَّةٍ أتأخرُ فيها عنِ الحصَّةِ الأولى. يبدو أني نمتُ عميقاً، ولمْ يَقْتَرِبْ مني أحدٌ، حتَّى أميرَ أحلامي. لا أذكرُ من قال لي:

– الأحلامُ لا تقتربُ من المرضى.

وأنا أقول:

– ما أتعسَ النوم بعيداً عن أميرِ أحلامي!

الطفل العجيب

دخلَ الأستاذُ ماجد إلى الصفِ برفقةِ طفلٍ ظنَّنا أَنَّهُ في الصفِّ الثاني أو الثالث. ألقى الأستاذُ علينا تحيةَ الصَّباحِ، ونظرَ إليَّ بعينين طافحتين بالحنان وقال: " الحمد لله على السلامةِ يا أحمدُ " وابتسمَ لي.. ثمَّ توجَّهَ بالحديثِ إلينا جميعاً ويَدَهُ على كَتِفِ الطفلِ وقال: " زميلكمْ الجديدُ سامي. نرحِّبُ به جميعاً. سيكونُ أخاً وصديقاً حميماً لكم جميعاً! " ثم دعاهُ إلى الجلوسِ، فَجَلَسَ إلى جانبي، بعدَ أنْ رَمَقَني بنظرةٍ فاحصةٍ

خاطفـةٍ. كـانَ سـامي شُـعْلَةً مـن الـذكاءِ والحيويـة فـي الـدرسِ. سَـحَرَنا برشـاقةِ أجوبتـه السـريعةِ عـن أسـئلةِ المُعَلمِ. فرِحْنا جميعاً بسامي الذي بدا لنا أصغرَ سنّاً منَّا لكنَّهُ تَبَيَّنَ أنَّهُ أكبرُ عقلاً وتجربةً . وبعدَ الغداءِ، جلسنا جميعاً حوْلَ سامي. إنَّهُ هزيلٌ جداً.. لكنَّ حديثَهُ يخرجُ من صدرٍ عامرٍ بالثِّقَةِ والإيمانِ. حكى لنا أكثرَ من حكايـةٍ عـن معـارك خاضـها مـع زملائـه ضـدَّ جنـودِ الاحتلالِ الصـهيوني. كـان ينظرُ إلينا ليرى إذا ما كنّا نرتابُ في ما يحكيه. نهضَ وقالَ متحدياً بودٍّ: " من منكم يستطيعُ مصارعتي؟ ". حاولَ ثلاثةٌ منَّا أن يتغلبوا على سامي، فلمْ يُفلِحْ منهم أحدٌ. ثمَّ نظرَ سامي إلينا وقالَ: " سأقفزُ الآن، فليجرب أحدكم أن يقفزَ المسافةَ التي أقفزها. حاولنا جميعاً فلم يُفْلحْ أحدٌ منَّا. لقد أقنعنا

سامي بأنَّه طفلٌ عجيبٌ. سألته: " كيفَ أصبحتَ بهذه القوة؟ " قال: " أحبّبْتُ الرياضةّ.. وأحبَبْتُ الجمبازَ قبلَ أنْ أدخلَ المدرسة. أحببتُ القفزَ إلى الأعلى.. ثم أصبحتُ أتَدَرَّبُ على صنعِ المقاليعِ والرمي بها على مسافة بعيدة، حتَّى أصبحتُ أصيبُ الهدفَ بدقَّةٍ.

أدرَكَنا الوقتُ دون أن نشعرَ، وجاءَ وقتُ العشاءِ. جلسنا جميعاً فخورين فرحين بصديقنا الجديدِ، ننظرُ إليه بإعجابٍ وغبطةٍ، وكلٌ منا يأمَلُ أن يتعلمَ منهُ شيئاً مفيداً. لكنَّ سامي لم يتناولْ من طعام العشاءِ إلاَّ القليل القليل. سألناهُ:" لماذا لم تأكلْ يا سامي؟ هل أنت مريضٌ؟ " أجابَ بعفوية لكنْ بألمٍ: " عندما أبدأ الطعام أرى أمي أمامي ؛ أنظرُ إليها، وتغمرُني رائحتها، ونادراً ما أمسكُ نفسي عن البكاءِ وأنسى كلَّ شيء حولي"..

واغرورقتْ عيناهُ بالدموعِ. عندئذ شعرنا بأن وراءَ سامي تكمِنُ مشكلةٌ كبيرة. قلتُ له مشجعاً: " كلنا هنا نعيشُ المشكلةَ نفْسَها. لقد قتلَ الصهاينة أمَّهاتنا وآباءَنا وحرمونا منْ أجملِ ما في الدنيا. فمنْ منَّا ينسى أمَّه ورائحتها ونورَ عينيها؟ " وكادتِ العبراتُ تغلبني، لكنَّني تماسكتُ، كأنَّني أقومُ بدورِ الأستاذِ ماجد، وشعرتُ أنني أصبحتُ كبيراً، أقومُ بعملٍ مهمٍ. عانقتُهُ وتابعتُ كلامي متماسكاً: " كلُّهُم في صدورنا وأرواحنا. كلَّ يوم تناديني أمِّي، مثلما كانتْ تناديني، قبلَ أنْ يغتالها الأشرارُ الصَّهاينةُ، وتذكِّرُني بوصاياها، وتعانقني، ثم ترفعُ يدَها إلى السماء وتدعو لي، وهي تطيرُ كحمامةٍ بيضاءَ إلى أنْ تختفي في الفضاء ". نظرتُ إلى عينيه. كانتا حمراوين جافتين من الدمعِ. هلْ جفَّ الدَّمْعُ فيهما، أم كان لكلامي تأثيرٌ إيجابي على سامي؟؟

كان علينا أن نحضِّرَ واجباتنا المدرسية. فنحن – تلاميذ الصفِّ الخامس، نجتمعُ حين نحضِّرُ واجباتنا المدرسية؛ نساعدُ بَعْضُنا بعْضاً، ونَطْمَئِنُ على استعدادنا لليوم التالي. كانَ الإرهاقُ واضحاً على سامي. ابتعد عنَّا، ومضى إلى سريره. تبعتُهُ بعدَ لحظات. كانَ يغطُّ في نومٍ عميقٍ. عدْتُ إلى زملائي وتابعنا التحضيرَ، حتى جاءَ وقتُ النومِ، فمضينا إلى أسِرَّتِنا. كان سامي يحلّقُ في" سابع نومة".

نامَ زملائي وبقيتُ صاحياً لا يقربني النومُ، أفكِّرُ بسامي. لا بدَّ أنَّ وراءه حكاية طويلة. ومَنْ منَّا ، نحن في فلسطين، لا يحملُ ألفَ حكايةٍ وحكايةٍ؟! وهلْ كلُّ الحكايات متساوية؟ في كلِّ الحكاياتِ ينتصرُ الأبطالُ، ويموتُ الأشرارُ، ويعودُ الحقُّ لأصحابه. فاطمئن يا سامي، سننتصرُ، إن شاء الله!

استيقظتُ صباحاً. نظرتُ إلى سريرِ سامي، فلم أرَهُ في السريرِ. بحثتُ عنه في كلِّ مكان، فلم أعثرْ له على أَثَرٍ. تُرى إلى أينَ مضيتَ يا سامي؟!..وهل حصلَ مكروهٌ لسامي، ولم نشعرْ به ونحن نيامٌ؟؟. انتظرنا حتى دخلَ الأستاذُ ماجد الصفَّ. وقبلَ أن يلقي علينا تحيةَ الصباحِ، بحثَ بعينيه عن سامي. سألَ برعبٍ:" أين سامي؟؟ " ثم توجَّهَ بسؤاله إلي، كأنَّه يسألُ عن أمانة غالية أوْدَعَها عندي:" أينَ سامي يا أحمد؟" وقعَ السؤالُ في صدري كتلةً من نار. خرجَ الأستاذُ من الصفِّ غير آبهٍ بجوابي.

انتظرنا طوالَ اليومِ ولمْ يعدِ الأستاذ. كانَ يوماً صعباً وثقيلاً، شعرْتُ فيه أنِّي مُكَبَّلٌ في مكانٍ مظلمٍ. كنَّا ننتظرُ بَصيصَ أملٍ يشفي نفوسَنا ويطمئننا على

سامي. وجاءَ وقتُ النومِ ولمْ يعدِ الأستاذُ ليطمئننا على سامي. فقدْ كانتْ قلوبُنا كلُّها عند سامي. لا أدري كيفَ خطفني ملاكُ النومِ، وأخذَني بعيداً. رأيتُ ساميا على سفحِ جبلٍ أخضرَ، تحومُ فوقَهُ طيورٌ بديعةٌ. رآني فلوّح لي بكلتا يديه مرحّباً. قفزَ وطارَ، يحلّقُ فوقَ رأسي. ناديته بكلِّ ما أملكُ من قوةٍ . استيقظتُ على صوتِ عيسى وهو يهزُّني لأصحو من حُلمي.

لم يعدِ الأستاذُ ماجد إلاَّ في الساعة الثانية عشرة ظهراً. لمْ أرَه حزيناً بهذه الصورة من قبل. أيقنا أنَّ مكروهاً أصابَ سامياً. دعانا الأستاذُ إلى غرفةِ الصفِّ. جلسَ خلفَ طاولته وراحَ يحدّقُ إلينا بحزن. شعرتُ أن الكلمات تقفُ في حَلْقِهِ، تأبى الخروجَ. ثمَّ قالَ بعد تفكيرٍ طويلٍ:" لا حولَ ولا قوةَ إلاَّ باللهِ. لقدْ وجدْنا سامياً على

قبْرِ أمِّـهِ مُـتوفى. كـان سـامي نابغـةً. وكـانَ مـن أشـجعِ المقـاتلين. وكــان إذا ضــربَ بمقلاعــه أصــابَ الـهـدفَ بدقـةٍ... وذاتَ يـومٍ طـاردَهُ الجنـودُ الصـهاينة حتَّـى دخـلَ منزلـه، فرموه بقذيفة دبابـة، فلم ينـجُ من عائلتـه إلاَّ هو، لكنَّــه أُصــيب بهــزَّةٍ نفســية حــادةٍ. كــان يصــرخُ دائمــاً وينـادي:" أمـي!! أمـي!!" حتَّـى فـي النـوم. وحـين تماثـلَ للشفاءِ، طلـبَ أن يأخذوه إلـى قبـرِ أمِّـه.. فأخذناه إليـه. وحين رأى قبرَ أمِّه أُغْمـي عليه وعادتْ إليه الأزمَـةُ منْ جديدٍ. وعدنا إلـى علاجه. ظننـا أنَّـه تماثلَ إلـى الشفاءِ، وتمنينــا أنْ يجــدَ بيــنكمْ الأهــلَ والأصــدقاءَ، ليعــودَ إلــى الحياةِ من جديدٍ، لكنَّ الأقدارَ كانتْ أقوى منَّـا بكثير ". ثـم تنهـدَ بعمْـقٍ وقـالْ: " لقـدْ كـانَ سـامي طفـلاً يثيـر الإعجابَ فـي كلِّ شـيء، حتَّـى فـي حبِّـه لأمـه.. فلم يقو على العيش بعيداً عنها... "

لغة الغيوم

لمْ ينسَ عيسى حكايةَ طيرانهِ إلى الغيومِ . كانَ يحدّثُني عنْها بينَ الفينةِ والأُخرى، ويسألُني أسئلةً لا أستطيعُ الإجابةَ عنها. سألني: (لماذا لا يكونُ الطيرانُ إلى الغيومِ حقيقة؟؟). قلتُ: (الغيومُ تأتي إلينا بنفسِها، وتهطُلُ علينا غيثاً يروي الزرعَ والنفوسَ). قالَ باحتجاجٍ: (لكنَّ الأرضَ تعاني من قِلَّةِ المياهِ العذبْةِ! – وتابعَ بأسى – وكوكبُنا غنيٌّ جداً بالمياه.... حتَّى في البحارِ يوجدُ العديدُ من الأنهارِ العذْبَة. فلماذا يعاني

كوكبُنا من الجفافِ والقَحْطِ؟؟). سألتُهُ مازحاً: (أَسْئِلتُكَ من العيارِ الثَّقيلِ.. فما هي علاقتُها بطيرانك إلى الغيوم؟؟ كنَّا نحلمُ يا رجل!).قال: (وعباسُ بن فرناس، كان يحلمُ أيضاً... وكان مؤمناً بأنَّ الإنسانَ قادرٌ على الطيران) قلتُ مُتَصَنِّعاً الحزنَ والألَمَ: (لكنَّهُ، مسكينٌ دفعَ حياتَه ثمناً لأَحلامِه). رماني بنظرةِ عتابٍ حادةٍ وقالَ: (لماذا لا تقولُ إنه فتحَ أمامَ البشرِ آفاقَ عصْرٍ جديدٍ – عَصْرِ الطيرانِ والفضاءِ؟؟) وشعَرْتُ بأنَّ عتابَهُ تحوَّلَ إلى لومٍ، كأنَّهُ وَجدَني متلبّساً بجريمَةٍ لا تُغْتَفَرُ وهو يقولُ: (منذُ متى وأنتَ تُفَكِّرُ بهذا المنْطِق؟ فمنْ يضحّي بنفسهِ في سبيل الناسِ، يكُنْ عندك مسكيناً يا أحمدُ؟؟) عانقتُهُ طويلاً وأنا أربتُ على ظَهْرِهِ وأقولُ مُعْتَذِراً: (ألمْ تشعرْ بأنّي كنتُ أمزحُ؟؟) ثمَّ دخلنا إلى الدَّرسِ. سألني

الأستاذُ بسرورٍ واضحٍ: (ما الذي يجري بينكَ وبينَ عيسى؟؟ أكادُ أسمعُ بينكما أحاديثَ ساخنة. شاركونا، إذا كانَتْ هناكَ مَوْضوعات مُهمَّةٌ!) قلتُ ببساطةٍ وعفويةٍ: (حكاياتٌ وأحلامٌ وآمالٌ!) أشرقَ وجهُ الأستاذ بإبتسامةٍ واسعة، وقالَ مشجّعاً: (ممتاز! رائع! وهل هناك أجمل من الحكايات والأحلام؟!). قلتُ وأنا أتغلَّبُ على موجةِ ضَحِكٍ شديدةٍ: (كلُّ ما في الأمرِ أنَّنا – أنا وعيسى، طرْنا إلى غيمةٍ كبيرةٍ، رأيناها في الفضاءِ... أعجَبَتْنا). سألَ الأستاذُ بفضولٍ يطفَحُ بالفرَحِ: (جميل! جميل! رائع! وماذا رأيتما هناك؟؟). يا إلهي! شعرتُ وقدْ عادَ الأستاذُ طِفْلاً مثلنا، يحلَمُ بالطيرانِ إلى عالمِ الغيوم. نَظَرَ الأستاذُ إلى عيسى وقالَ: (نريدُ أنْ نَستمعَ من عيسى). كان عيسى يحاولُ كبْتَ موجةِ ضحكٍ

قوية. كانتْ عيناهُ تدْمَعان من شدة الضَّحِك، والأستاذُ ينظرُ إليه متورِدَ الخدَّين من شدَّةِ الفرَحِ. أخيراً تماسكَ عيسى وقالَ: (... رأيتُ أحمدَ يسْتَعِدُّ للطيران فَتَشَبَّثْتُ به، فطارَ بي إلى غيمةٍ كبيرة... قال: إنَّهُ يريدُ أنْ يَتَعَلَّمَ لغةَ الغيومِ...). قال الأستاذُ: (حسناً! هو يريدُ أنْ يتعلَّمَ لُغَةَ الغيومِ، وأنتَ؟!). قالَ عيسى بمرَحٍ: (لقد طارَ بي... إلى الغيمةِ وتركَني هناك... وعاد..). احتجَّ الأستاذُ بلُطْفٍ وقالَ: (فهمْنا قصدَكَ، لكنَّنا بحاجةٍ إلى توضيحٍ أكثر. أعطنا زُبْدَةَ الكلامِ).عندئذٍ بدأ عيسى يُجيبُ بهدوء ورصانةٍ: (بينَ الجدِّ والمُزاحِ، وبينَ الخيالِ والواقعِ وبينَ اليقْظَةِ والمَنامِ – سألْتُ نفسي: لقدِ استطاعَ الإنسانُ أنْ يَتَحَكَّمَ بالصَّوتِ والصُّورة – أقصدُ التلفازَ والمذياعَ، ويلتقطُ الصُّورَةَ في المكانِ الذي يُريدَه...

واستطاعَ الإنسانُ أن يصنعَ الصواريخَ الفتَّاكَةَ ؛ يُصيبُ بها الهدفَ بدقَّةٍ فائقةٍ، ليَقْتُلَ الأبرياءَ، ولم يستطعْ هذا الإنسانُ التَّحَكُمَ بالغيومِ وتوجيهها إلى الأماكنِ العطشى؟؟... لماذا نرى أماكنَ تعاني من فيضاناتٍ مدمِّرَة، وأماكنَ تعاني من القَحْطِ والجَّفافِ القاتلين؟؟ – وعادَ عيسى إلى المرحِ والمُزاحِ – فقلتُ لنفسي:(هيّا يا عيسى، تعلَّمْ لغةَ الغيومِ مع أحمدَ كي تطلبَ من الغيومِ أن تبحثَ عن الأماكنِ العطشى... ولا تحرِمُها من جودها ورائحتها المنعشة..) عندئذ رفعَ الأستاذُ يدَهُ لنستمعَ إليه، وقال: (هل تعلمون أنكم تطرحون مسألة هامة جداً.. أنا أعتقدُ أنَّ الغيومَ تبحثُ عن الأشجارِ، وعن المروجِ، وعن الزهورِ وعنِ السنابلِ، وعن الغاباتِ.. لتسقيها وترويها.. ولكنْ.. عندما يقطعُ

الإنسانُ هذه الغابات ويسيءُ إلى الطبيعةِ ، فإنه في الوقت نفسه، يسيء إلى الغيومِ.. فأين تذهبُ الغيومُ؟؟ أعتقدُ أنَّ من حقِّ هذه الغيوم أن تهرُبَ.. أو أنْ تأخذَ على خاطرِها.. ما رأيكُمْ؟؟ لماذا لا نتعاملُ مع الغيومِ والأشجار والطيور والأزهارِ، على أنَّها أرواحٌ حيَّةٌ، تبحثُ عن الأماكن التي تحبُّها؟؟.. كيفَ يأتي إلينا الطيرُ إذا قطعنا الأشجار؟؟ وكيف تأتي الغيومُ إلينا إذا كنا نسيء إلى كلَّ ما هو جميل في الطبيعة؟؟ والطبيعة هي حبيبة الغيومِ .. وكلُّ حبيبٍ يبحثُ عن حبيبه! أليسَ كذلك؟؟) لم أرَ عيسى مرحاً مثل هذا المرح، على الرغمِ من أَني رأيتُ الحديثَ عن هذا الموضوع جدياً، ويحتاج إلى تفكير.. ولمْ أرَ الأستاذَ فرحاً متفائلاً إلى هذا الحدِّ، فقال معبراً عن إعجابه الشديدِ بنا: (والله يا

جماعـة.. لسـتما سـهلين... لقـد ذكَّرتمـاني بطفـولتي وأحلامي... فقدْ كنتُ مثلكما أسرحُ بأفكاري، في اليقظةِ والنـومِ مـع الغيـومِ، وأرى فيهـا خرافـاً وطيـوراً وعصـافيرَ وأشـجاراً ومروجـاً... وذات يـوم، رأيـت ثـوراً مزركشـاً رائعـاً... فلعبـتُ معـه طـويلاً... وانضـمَّ الينـا طـاووسٌ جميلٌ، وراحَ يلعبُ معنا. كنَّا نطيرُ من مكان إلى آخر، كمـا تطيـرُ الفراشـاتُ بيسـرٍ ورشـاقَةٍ.. ثـم أعطـاني الطاووسُ شريطاً فضياً لأربطَ الثورَ.. فربطتُه وسرتُ به إلـى شـجرةٍ فـي البسـتانِ وربطتُـه إليهـا... وأذكـرُ أنـي اسـتيقظتُ متـأخراً فـي الصـباح، علـى غيـرِ عـادتي.. ومضـيتُ إلـى المدرسـة وأنـا أفكِّرُ بـالثورِ.. عـدتُ إلـى المنـزلِ فرأيـتُ ثـوراً يشْـبِهُ الثـورَ الـذي لعبـتُ معـه فـي الأحلام. أذكرُ أنِّي كنتُ في الصف الأوَّلِ. اقتربتُ مِنْهُ

بحَذَرٍ فراحَ يهزُّ رأسَهُ. دنا أبي مني ووضَعَ يدَهُ على كَتِفي وقالَ: (هلْ أعجبَكَ الثوْرُ؟ اشتريتُه لك اليومَ من السوقِ. سنذبَحُه في العيدِ. ابتعدْتُ عن أبي وأنا أبكي.. وارتفعت حرارتي ومرضتُ. ولمَّا عرفوا السبب بعدَ جهد جهيد، تعهَّدَ والدي أن يحافظَ على الثور لي – أنا لألعبَ معه. وفي اليومِ الذي تماثلْتُ فيه للشفاء، هاجَمَنا جنودٌ من مستوطنةٍ صهيونيةٍ كانتْ قريبةً من منزلنا، واقتربَ اثنان منهم ليأخذوا الثورَ، وبقي الآخرون شاهرين أسْلِحَتَهُمْ مهدِّدينَ والدي بإطلاق النارِ إذا تحرَّك. حاولَ أحدُ الصهاينة فكَّ الثورِ فنطحَهُ الثورُ نطحةً رمتْهُ على الأرضِ فاقدَ الوعي.. واستدارَ إلى الثاني لينطحه فهرَبَ... ومضى الثورُ يهاجم الجنودَ بشراسةٍ وعُنْفٍ ولمْ يسمحْ لهمْ بالاقترابِ منهُ، إلاَّ بعدَ أنْ

أردوهُ قتيلاً. ثم حملوا رفيقهمْ ومضوا خائبين..) بدا التأثرُ واضحاً على وجهِ الأستاذِ وتعثَّرَتْ الكلماتُ في فَمِهِ. ثم صمتَ لحظات وتابعَ يقولُ: (يا لهؤلاء الصهاينة الأشرار... لم يتركوا لنا مكاناً في حياتنا إلاَّ زرعوه بالجِّراحِ... حتَّى أحلامَنا... لكنْ.. يا جبلُ (لا تَهُزُّكَ ريحٌ) سنَنْتَصِرٌ إن شاء الله... وستبقى جراحُنا أوْسمةً على صدرِ التاريخ...

نهاية كل ظالم

في اليومِ التالي لرحيلِ سامي، دخلَ الأستاذُ ماجد الصفَّ وقالَ لنا: (كان رحيل سامي (رحمه الله) أليماً علينا جميعاً... ولكنْ، علينا أن نخرجَ من الحزنِ، ونتغلَّبَ على الآلامِ، ونُكَفْكِفَ دموعَنا، حتَّى نرى طريقَنا بوضوحٍ).. ثم صمت لحظات وتابع، وقد أشرقَ وجهُهُ بأملٍ ساطعٍ: (... فنحن في معركةٍ. والجراحُ غزيرةٌ... وكان رحيلُ سامي من أقسى هذه الجراحِ، التي واجهتُها في حياتي)... ثم كتبَ هذهِ العبارةَ على السبّورة: (يقولُ

لنـا الحكمـاءُ وينصـحنا العلمـاء بـ(لا تحـاربْ وأنـت غاضِبٌ! لا تحاربْ وأنتَ حزينٌ باكٍ!). لكن عيسى بقي أسيرَ حزنٍ شديدٍ، فترةً طويلةً، وكأنَّهُ لمْ يَسمعْ ما قالَهُ الأستاذُ. سألني عيسى، غيرَ مَرَّةٍ: (هلْ تعتقدُ بأن سامي، كان يُحبُّ أمَّهُ أكثرَ مِنَّا؟). سألته: (كيف نقيسُ الحبَّ أو نزينُهُ؟؟) لم يُجِبْ أيضاً على سؤالي، لكنَّني بدأتُ أفكرُ: (ما هو الحبُّ؟؟ ومن أين ينبع؟؟وإلى أينَ يصبُّ؟ وإلى أين يأخُذُنا؟).

والسؤالُ الأهمُ الذي بدأ يدورُ في ذهني: (هل يمكن أن يكونَ الحبُّ ضاراً؟؟) فنحنُ في الحياة نحافظ على كلِّ ما هو غالٍ وثمينٍ، فهلْ نحافظُ على الحُبِّ، صحيحاً معافى في صُدورِنا وقلوبنا؟؟... وتصورتُ أمامي شجرةً باسِقَةً خضراء، تسحرُ الألبابَ، طافِحَةً

بأينَعِ الثمار؛ على شاطئِ نَهْرٍ دافقٍ، في مرجٍ أخْضَرَ بهيجٍ، تتغنى بها أجملُ الطيورِ، وتغنّي لها النجومُ أروعَ الأغاني، ويناغيها البدرُ بضيائه، كأنه ثَغْرُ والدة حنون. وتَصَوَّرْتُ شجرةً أخرى – قَزَمَةً يابسةً، في أرضٍ جرداءَ قاحِلَةٍ، كأنَّها شَبَحٌ مخيفٌ، تندُبُها النجوم، وتبكي عليها الأقمارُ، وتنفرُ منها الطيور.. لقد شبَّهتُ الحبَّ بتلكَ الشجرتين. فهناك حبٌّ يُشْبِهُ الشجرةَ الأولى، وآخر يُشْبهُ الشجرةَ الثانيةَ. وقد كان سامي غرسةً رائِعةً، حَرَقَها شارون بحقدِهِ الأعْمى.

حاولتُ أنْ أقنعَ عيسى بأفكاري هذه، لأخْرِجَهُ من حالةِ الحزنِ والكآبةِ، التي ألمَّتْ بِهِ، لكنَّهُ كانَ عني في وادٍ بعيدٍ.

أصبحَ عيسى يسيرُ ويأكلُ ويتحدثُ كأنَّهُ إنسان آلي. فكيفَ أنقذُهُ من هذهِ الحالةِ الصّعْبة؟؟ حتّى الأستاذ أيضاً لم ينتبِهْ إلى حالةِ عيسى. فهلْ كانَ الأستاذُ أيْضاً في حالةٍ شَبيهةٍ بحالةِ عيسى، لكنَّها لا تظهرُ عليه بوضوحٍ؟؟.

خَطَرَ على بالي ذاتَ يومٍ أن أسألَ الأستاذَ: (كيفَ استطاعَ سامي أن يَخْرجَ من الدار، ويصل إلى قَبْرِ أمِّهِ؟؟) وجدتُ هذا السؤال يحملُ الحزنَ والألمَ، فَعَدَلْتُ عنْهُ. قلتُ لنفسي: (فكِّرْ يا أحمدُ بعطرٍ يعيدُ أجواءَ الفَرَحِ إلى النفسِ! فكرْ بنهرٍ نسبحُ فيه جميعاً، يغسلُ عنا غبارَ التعبِ والكآبة. أبحثْ يا أحمد، في فضاء روحك، عن غيمة تتحدث إليها، وتتأمل رقصاتها، وتسمع أغانيها، وتسمع أغانيك؛ حتى تطير إليها، أو تهبط هي إليك، لتروي براعم روحك العطشى.

اقتربتُ من عيسى وهمستُ في أذنه: (أتخيلُ فراشةً تطيرُ أمامي، وتوشوشني: (شبيك لبيك يا أحمد! اطلبْ وَتَمَـن!) سـأل عيسـى بفضـولٍ فـاترٍ: (إذاً، أيـن المشكلة؟؟).

وأضـاف مـداعباً: (أطلـبْ مـا تشـاء... ولا تـنسَ أصـحابَكَ!) قلـتُ مازحـاً: (... وأنـا فـي حيـرة. مِنْ أيـن أبْـدأ؟) وأشـرتُ إلـى غيمـةٍ كبيـرةٍ: (لوطرنـا إلـى تلـك الغيمـة؟؟). سـألني ببـرودٍ: (ومـاذا تفعـلُ هنـاك يـا شـاطر؟؟) قلـتُ محتجّـاً: (ألمثلنـا يُقـالُ هـذا الكـلامُ؟؟) سـألَ: و(لمـاذا؟؟). قلـتُ: (فـي طريـقِ الشّـاطرِ تُزْهِـرُ أعمـالٌ وأعمـالٌ، وتشـرقُ آمـالٌ وآمـالٌ، وأمـامَ الكَسـولِ تتـراكمُ الأوحـالُ والعَقَبـاتُ). طَفَـحَ وجـهُ عيسـى بـأريجِ التحدي والإعجابِ وقالَ: (أرنـي زهرةً واحدةً مِنْ أزهارِ خيالِكَ يا شاطر!).

قبلتُ التحدي بارتياحٍ وسرورٍ، وقلتُ: (حسنٌ. أودُّ أنْ أطيرَ إلى تلكَ الغيمةِ... لأسبحَ فيها.. وأرافقُها في رحلتها.. سآخذُ دفتراً وقلماً؛ أود أن أدوّنْ كل همسة، وكل حركة، أود أن أستمع إلى نبض قَلْبِها وخفقِ رِئتَيها. أودُّ أن أدرسَ وَأَتَعَلَّمَ لُغةَ الغيومِ على يَدَيْها...) وصمتُّ أتأمَّلُ تلكَ الغيمةَ الرائعةَ.. ثم نظرتُ إلى صديقي لأرى تأثيرَ كلامي عليه...

قطعَ علينا وقتَ العشاءِ سلسلةَ أحلامِنا. وفي العشاءِ، كان ينظرُ عيسى إلي ويبتسمُ ويميلُ برأسه. تُرى هَلْ نجحتُ في إخراجِ عيسى من حالةِ الحزنِ التي كان يعيشُها؟. في الصباح قال لي: (لو عرفت ما الذي رأيتُهُ في الحُلْمِ؟) سألتُه بفضول: (ماذا؟ قلْ!!)... قال: (طرتُ إلى غيمتك تلك.. وطفتُ معها أماكنَ رائعةً لم

أرَ مثلَها من قبلُ. وكانتْ ترافقُنا فراشةٌ ساحرةٌ. نظرتُ إلى الأرض فرأيت شارون...) وراحَ صاحبي يضحك بصورةٍ عجيبةٍ... ثم اتسعتْ عيناه إعجاباً: (فجأةً تحوَّلَتْ الفراشةُ الرائعةُ إلى باشقٍ... انقضَّ على شارون وارتفعَ به) وعادَ صاحبي إلى الضَّحِكِ..... وهو يصفُ شارون يصرخ ويَسْتَغيثُ رُعباً وَجَزَعاً... واخْتَتَمَ قصة حُلْمَهُ بِهَذِهِ الكلمات: (كانَ الباشقُ يرتفعُ به إلى أعلى نقطةٍ، نراهُ فيها كَنَمْلَةٍ، ثم يترُكَهُ يَهوي على الأرضِ... حتى أصبحَ عَجينَةً سوداءَ).

قلتُ في نفسي: هذه نهايةُ كلِّ ظالمٍ، نراها في الحُلْمِ، ولن تكون بعيدةً في الحقيقةِ.

عسكر وحرامية

شعرتُ أنِّي ارتكبتُ خطأ كبيراً بحقِّ مهيار، حينَ قاطعتُهُ وهو يحكي لي حكايتهُ، ولمْ أُتِحْ لهُ فُرْصَةً لإكمالِها. ولامني عيسى حينَ أخبرتُهُ بما جرى بيني وبينَ مهيار، لكنَّه طمأنني بأنَّه سيصْلِحُ الأمرَ. بعدَ العشاءِ جلسنا مع مهيار وتحدَّثْنا طويلاً عمَّا يجري حولنا منْ أحداثٍ شهدتِ اليومَ، تسعةَ عشرَ شهيداً، منْهُم طفلةٌ رضيعةٌ وثلاثُ نساء. قلتُ:" صرنا نتحدث نحنُ الصغارُ عن الحروبِ والدَّمارِ والشهداءِ، أكثرَ من

الحديثِ عن الألعابِ والنُزْهات والأحلامِ. ". تنهدَ عيسى وقالَ:" أشْعُرُ بأن صدري أصبحَ أرضْاً جافَّةً، كأنَّهُ صحراءُ تَلْتَهُبُ...". قلتُ: ".. ولا يشفي عطشَ الأرواحِ إلاَّ الحكايات الجميلةُ.. ليتَني الآنَ أجلسُ في بستاننا إلى جانبِ جدي، يقصُّ عليَّ حكايةً من حكاياته المُمْتعةِ.. " وكدتُ أغيبُ في عالمِ الأحلامِ، وأنا أتَذَكَّرُ تلكَ الأيام الجميلة الرائعة.. لو لمْ يهزُّني عيسى من يدي مازحاً:" يا لكَ منْ أناني.. ألا تحبُّ أن نكونَ معكَ؟ ".. وأضافَ مهيارُ: " تريدُ أن تمضي مع ذكرياتِكَ وتترُكُنا وحيدين هنا؟.. " قلتُ بأسى:".. آسف! آسف. تخطفُنا الذكرياتُ رغْماً عنَّا، كما يخطفُ النومُ المتعبَ الحالمَ..". قالَ عيسى مخاطباً مهياراً:" أنقذْنا بحكايةٍ تأخذُنا معاً إلى عالمٍ جميلٍ " .. ومهيارُ يحبُّ

كلمـة (معـاً). أي أنـه يحـبُّ الحـديثَ والمشـاركةَ فـي موضوعِ الجماعةِ. قالَ بعفويةٍ: " الحكاياتُ تأخذنا إلى الماضي، وأنا أحبُّ أن أنظرَ إلى المستقبلِ.. فما رأيكمْ في أنْ ننظرَ إلى الأمام؟؟ ما رأيكم في أن نطيرَ إلى عالمِ المستقبلِ، لنكونَ أبطالَ حكايةٍ جديدةٍ؟..". سألناه بلهفةٍ وحماسةٍ: " كيف؟؟ ماذا تقصد؟؟ ". قال ببساطةٍ الحكيمِ وثقتهِ: " كلُّنا واثقونَ من انتصارنا على الصهاينة الأشرار وتحريرِ كاملِ أرضنا من سمومِهم. قلنا بثقةٍ: " طَبْعا كلُّنا واثقون.. ". قالَ مهيارُ بحركةٍ مسرحيةٍ، ماداً يدَهُ إلى الأمام:" تصوروا معي أننا الآنَ نُطهّرُ أرضَنا من بقايا جنودِ الاحتلالِ المُنْهَزِمِ أمامَ الانتفاضةِ العارمة لأمَّتِنا على قوى الشرّ والعدوان ". ونظرَ إليَّ طويلاً يَتَفَحَّصُني وتابعَ قائلاً: " أنتَ الآنَ يا أحمد ضابطٌ

منهـزمٌ فـي جـيشِ الاحـتلالِ الصـهيوني، يحاصـرُكَ المقاتلون العربُ في إحدى المستوطناتِ الصهيونية ". لاحظَ مهيارُ ألمي وحُزْني.. فطَمْأَنَني قائلاً : " إننا نتخيَّلُ.. نتصورُ.. أنتَ أحمد – عربي.. ألا تستطيع أن تتصورُ حالةَ ضابطٍ صهيوني محاصرٍ في إحدى المستوطناتِ الصهيونيةِ؟ ". وافقتُ على مَضَضٍ، فالتَفَتَ إلى عيسى وقالَ: " وأنتَ يا عيسى، تصورْ أَنَّكَ تُحاصرُ آخِرَ مستوطنات الصهيونية المُنْهَزِمَةِ.. وتلْقى مقاومةً شديدةً " احتجَّ عيسى ساخراً بطريقة مسرحية: " أنا أتصور أن الصهيونيةَ ستنهارُ، كما ينهارُ بناءٌ ترابيٌّ قديمٌ، أمامَ مَطَرٍ غزيرٍ ورياحٍ عاصفةٍ. ستهوي الصهيونية وتغورُ في الأرضِ عميقاً.. أوستجرفُها السيولُ.. ". رفعَ مهيارُ يدَهُ مُنَبِّها، يُذَكِّرُنا: " الذكيُّ

النبيــهُ ، يســتَعِدُّ لكــلِّ الاحتمــالات.. – وبالطريقــةِ المسرحيةِ نفسها تابعَ: " نحن يا أصدقائي، نتصورُ.. نتخيلُ ونستعدُّ لكلِّ الاحتمالاتِ.. أليسَ كذلكَ؟؟ ". سألتُهُ: " وأنتَ؟ ما هو دَوْرُكَ؟؟ ". قالَ ببساطةٍ ونشوةٍ: " أنا الجمهور. " وأشارَ بيده للبدء قائلاً: " هيَّا يا أحمد! أرِنا ما عندكَ! " . سأحاولُ وأبذلُ قصارى جهدي.. وأمري لله ".. تصورتُ أني مسؤولٌ عن مستوطنة صهيونية، واسمي موشي. بدأ الرعبُ يمزقني واليأسُ الأصفرُ ينهشني وأنا أعيشُ انهيارَ الكيانِ الصهيوني، وأرى وأعيش بألم كيفَ تحوَّلَتِ الأحلامُ إلى رماد. أصرخُ بأعلى صوتي: " أيها الناس! " فيجتمعونَ حولي يرتعدونَ خوفاً وهلعاً. أقولُ لهم بصوتٍ تخْنِقُه الآلامُ وتحرقُهُ المرارُة: " لقد انهزمنا!! وعلينا أن نرفعَ الرايةَ

البيضاءَ.. ونرحلَ.. كفانا حروباً!! كفانا دماراً.. لقد وَعَدَتْنا الصهيونيةُ بالجنة، ولم تعْطنا إلاَّ الحروبَ والدمارَ. هيَّا اخرجوا وارحلوا.. واتركوا الأرضَ لأهلها... " يهجم علي صهيوني أرعن.. يَمْنَعُني من متابعة كلامي: " أسكتْ أيُّها الجبانُ.. لنْ نرحلَ. سنموتُ هنا.. سنحترقُ مع أحلامنا.. ولن.. نر..حـ..ل! ". يصوِّبُ الصهيوني الأرعنُ مسدَسَهُ تجاهي ويطلقُ الرصاصَ علي. يصيبني في كتفي. تتدفق القوات العربية، وتجتاح المستوطنةَ كالسَّيلِ الجارف.. يلتصقُ الصهاينةُ جميعاً بالأرضِ. أنا جريحٌ.. أصرخُ متألماً. يقفُ (عيسى) – قائد القوات العربيةِ المقتحمةِ، يخاطبُ المستوطنين الصهاينة المستسلمين: " أيُّها الناسُ! العربُ لا يُؤذون أسراهم، ولا يعاملون الضعفاءَ والأطفالَ والنساءَ بقسوةٍ.

انهضـوا جميعـاً ولا تخـافوا. لا نريـدُ إلاَّ إعـادة الحـقَّ لأصحابِه ". يشيرُ عيسى إلى مساعده: " خذوا الأطفالَ والنسـاءَ والشـيوخَ إلـى مكـان آمـنٍ.. وقـدِّموا لهـمْ مـا يحتاجونـه.. ". أصرخُ مُسْتَنْجِداً من الألم. يقتربُ منـي عيسـى. يسـألني: " مـن أنـتَ؟ ". أحـاولُ النهـوضَ فيمنعنـي جُرْحـي مـن الوقـوفِ. يسـاعدُني عيسـى علـى النهوض.. أقدِّمُ نفسي بصوتٍ يتمزقُ من الألم: " أنـا.. قائـدُ.. هـذه المـس- ..تـ..و..طـ..نة..".. أفقدُ السـيطرةَ على نفسي ويُغمى علي. يُشيرُ عيسى (كقائدٍ للمقاتلين العربِ). بتقديمِ المساعدةِ الطبيةِ لي، ثم يتوجَّهُ إلى بقيـة المنبطحين علـى الأرضِ: " نَطلبُ من جميـع المجندين في الجيش الصهيوني أن ينهضوا ويصعدوا إلى عربـة، بعـد أن يتركـوا كـل أسـلحتهم علـى الأرضِ. " يتـراكضُ

الصهاينةُ، يصعدون إلى العربة. ينتهي المشهدُ. نقفُ أمامَ مهيار. نسألُهُ: "..عنْ رأيه.. يفكِّر.. ثم يقولُ: " هناكَ خطأٌ كبيرٌ ارتكبه عيسى. فمنْ يستطيع تحديدَ هذا الخطأ؟ " بدأنا نُفَكِّرُ.. بالخطأ الذي ارتكبناه في (اللعبة) التي مثَّلناها أمام مهيار، لكننا لم نستطعْ تحديدَ الخطأ. سلَّمْنا بعَجْزِنا في اكتشافِ الخطأ. عندئذٍ سألنا مهيارٌ: " عندما نقبضُ على مجرمٍ، ماذا نفعلُ؟.. " قال عيسى دونَ تفكيرٍ: " أولاً – نُفَتِّشُهُ.. ". هتفَ مهيارُ:" طبعاً!!.. وأنتَ يا عيسى لمْ تأمرْ جنودَك بتفتيش الصهاينة.. فقدْ يَخْدَعَكَ أحدُهم ويحتفظُ بسلاحه ليقومِ بعملٍ انتقامي لمْ تكن تتوقعه.". قلتُ مازحاً:" كأننا لعبنا عَسْكَر وحرامية. وكنَّا نلعبُ ". قالَ بحماسةٍ: " صحيح! أليس الصهاينة – ـ حرامية؟.. سرقوا أرضنا؟؟..".

اقتربَ منَّا الأستاذُ ماجد من غير أنْ نشعرَ . سلَّمَ علينا. كانتْ عيناهُ مغرورقتين بالدموعِ. قالَ بصوتٍ يَحْتَرِقُ ألماً:" العمرُ لكمْ جميعاً.. لقد توفيتِ الجدَّةُ..."

رحيل الجدة

كان وقعُ الخبرِ أليماً علينا جميعاً. فقدْ رحلتِ الجدَّةُ التي كنَّا نحلمُ بزيارتها، لتحكي لنا عن زوجِها، رفيقِ عزِّ الدين القسَّام – شيخ المجاهدين وإمامهم. وبقيتْ تلكَ الأمنيات في صدورِنا، وردةً تحلمُ بقطراتٍ من غيمة حنون ؛ تكبرُ معها في حقولٍ خضراءَ. وكيفَ تعيشُ الورودُ بين دباباتِ الصهاينة الأشرارِ، يهدمونَ المنازلَ فوقَ أهلِها، ويحرقون البساتينَ والرياضَ والحقولَ، ويبثُّونَ سمومَهم الحارقةَ في كلِّ مكان يحلّون فيه؟؟ نظرَ إلينا الأستاذُ ماجد طويلاً وقال:

– من المفروضِ ألاَّ أخبركمْ بوفاة الجدَّة، لكنني أريدكم أن تكونوا أقوياءَ أمامَ كلِّ حدثٍ أو خبرٍ. هذه هي الحياة – رحيلٌ وسفرٌ، لقاءٌ وفراقٌ، فشلٌ ونجاحٌ...إلخ

وهمَّ بتوديعنا، فاستوقفتُهُ بكلِّ ما أملكُ من قوة وحزم قائلاً: (سنذهبُ معك). قالَ رافضاً وقد فهمَ قصدي: (إلى أين؟ لا! لا). قلتُ بإصرار أشد: (سنذهبُ معكَ وإلاّ هربتُ كما هربَ سامي.) ارتعشَ الأستاذُ رهبةً من قولي، وبدا عليه حَرَجٌ شديدٌ.. وشعرت أنني دفعته إلى حيرة شائكة. صرخَ بصوتٍ مَكْبوتٍ: (أرجوكَ! أرجوكُم جميعاً!)

– أوَّلَ مرَّةٍ أسمعُ منه كلمةَ توسُّلٍ – لا تفكروا في هذا الموضوع! نحن في ظروفِ احتلال قاسية. الجنودُ

الصهاينةُ كالذبابِ، منتشرون في كلِّ مكانٍ. إننا في حربٍ طاحنةٍ، مع جنودٍ أشرارٍ حاقدون، يغلي الرعبُ في أرواحهم..). قاطعتُه وقد داهمتني موجةُ بكاءٍ حادة قائلاً: (.. ونحنُ نعرفُ هذا.. سنرافق جثمانَ الجدةِ إلى مثواها الأخير، وأتمنى لو كنتُ إلى جانبها الآن في موتها. الصهاينةُ يحرموننا من كلِّ شيء، حتَّى من الهواء النقي، وأنتَ يا أستاذُ، تريدُ أنْ تحرمَني من أن أودِّعَ إنساناً رأيتُ فيه أمي وأبي.. رأيتُ فيه أحلامي! شممتُ فيه روحَ جدِّي.. فإمَّا أن تأخذَنا – وأكَّدت على كلمة " تأخذنا " غيرَ مرَّة – .. وإمَّا لن تراني أبداً..). وافقَ الأستاذُ ماجد على مَضَضٍ، ولكنَّ وجهه أصبحَ أصفرَ كليمونةٍ وهو يقولُ بلهجةٍ تُعَبِّرُ عن عجزِهُ: (لا حَوْلَ ولا قوةَ إلّا باللهِ..). وعادَ للتفكيرِ ثانيةً ومنظرُهُ

يوحي بأنه في مأزقٍ صعبٍ. لا شكَّ أنَّهُ كان يبحثُ عن مخرجٍ مناسبٍ من هذا المأزقِ. أخيراً وضعَ ساعدَهُ على كتفيَّ، وقالَ بصوتٍ يختنقُ ألماً: (يا أحمد ستكون عبئاً كبيراً علينا.. وأنت تُحمِّلُني مسؤوليةً كبيرةً). أشحتُ بوجهي عنَّهُ وأنا أبكي بحرقةٍ وألمٍ شديدين. شعرتُ بصدري يتمزقُ من شدَّةِ البكاءِ. عندئذٍ عانقني وهو يقولُ مُطَمْئناً: (حَسَنٌ.. سآخذكم.. هذا وعدٌ.. سأعود صباحاً..). قاطعتهُ بإصرار: (الآنَ!..) شعرتُ أنَّه استعادَ شجاعتَه وهو يقولُ: (الآنَ! – ـ كما تأمرون.. هيَّا بنا..). وسرتُ خلفَهُ وأشرتُ لمهيار وعيسى أن يتبعاني. وصلنا إلى منزلِ الجدةِ بعدَ أكثر من ساعتين، سيراً على الأقدامِ. سرنا في الشوارعِ البعيدةِ عن دورياتِ الجنودِ الصهاينةِ، عبرَ الأماكنِ

المظلمة. وكانتِ الأنوارُ الكاشفةُ تطاردُنا من مكان إلى آخرَ.. لكنَّ الأستاذَ كان حاذقاً في التخفي والابتعاد عنها. دخلنا إلى غرفة كبيرة ؛ كانتِ الجدةُ راقدة فيها يحيطها عددٌ من النساء والرجال، ينصتون إلى قارئ شابٍ، يتلو آيات من القرآن الكريم، على ضوءِ فانوس قديم. جلسنا جميعاً ننصتُ إلى المقرئ، وأنا أحدِّق إلى الجدةِ المزمَّلة بأغطية الموتِ. بدأ صوتُها يعلو ويصلُ إلي ويناديني. اختلطَ صوتُها بأصواتِ انفجاراتٍ حادةٍ تأتي من بعيد وتقتربُ منَّا أكثرَ فأكثرَ. ارتجَّتِ الأرضُ تحتنا غير مرة. أنظرُ إلى مهيار وعيسى. كأنَّنا أصبحنا دمى محنَّطَةً. أينَ هي دموعُ الحزنِ والأسى على فراق الجدةِ؟ يبدو أن روحَها ترفُّ بارتياحٍ فوقنا، سعيدةً بالتفافنا حولها. لم نقبلْ دعوةَ الأستاذ لنا بالنومِ حتى

الصباحَ. كنَّا ننْصُتُ إلى كلِّ كلمة تصلُ إلينا من القارئ .. وأنا أتصورُ الجدةَ تنصتُ معنا بخشوعٍ. كانتْ مشاعرُ الفخرِ تملأُ فضاءَ الغرفةِ، وتبعدُ عنَّا التعبَ، وتشيعُ الدفءَ، وتخفِّفُ من ألم أحزانِ الفراقِ. ولمْ يشتدّ ألمُ الحزنِ إلاّ عندما حملَ الرجالُ نعشَ الجدَّةِ وسرنا به، ونحن نكبِّرُ. لمْ أنتبه إلى العدد الكبير من المشيعين إلاَّ بعدَ أن تعالتِ التكبيراتُ، تَتَرَدَّدُ في الفضاء. كانتْ دموعي تنهمرُ بغزارةٍ وتمنعني من مشاركة المشيعين بالتكبير. في الطريقِ اعترضتنا عصابة منَ الجنودِ الصهاينة؛ أحاطونا من كلِّ الجهات، شاهرين أسلحتهم الرشاشة، وأجبروا المشيعين على التوقفِ، وإنزالِ النعش على الأرض. زعقَ قائدهم ككلبٍ مسعورٍ: (تفتيش!!). تقدَّمَ الأستاذُ من قائدهم محتجاً: (.. ولماذا التفتيش؟؟

ألا ترون أننا نحمـ..) رفع قائدهم يدَهُ إلى الأعلى آمراً: (. تفتيش يعني تفتيش!). انفجر الأستاذُ ماجد غاضباً: (.. ألستم بشراً؟؟ ماذا تريدون؟؟ ألا تستحون؟؟.. ألا..) وقبلَ أنْ يكملَ جملته الأخيرة، هجمَ عليه أحد الجنودِ وضربه بالهراوة على رأسه عدةَ ضربات. وقعَ الأستاذُ على الأرضِ مضرَّجاً بدمائه. لا أدري كيفَ هجمنا نحن الثلاثةُ – عيسى، مهيار وأنا – على الجنودِ الصهاينة، في معركةٍ شرسة، اختلطَ فيها الحابلُ بالنابلِ. رأيتُ مهيار يشتبك ويصارعُ أحدَ الجنودِ الصهاينة. ورأيتُ كيفَ ضربَ أحدُ الصهاينة مهياراً بأخمصِ البندقية على رأسه. ولم أصحُ إلاَّ وأنا في المشفى، معصوبَ الرأسِ، ويدي ملفوفةٌ بالشاش، لا أقوى على تحريكها. كان جسمي يتمزَّقُ من الألم.

أين الأستاذ ماجد؟ أين مهيار؟ وأين عيسى؟ ماذا جرى للجدَّةِ؟ كيفَ دُفِنَتْ؟ وماذا جرى بعد معركتنا مع الجنود الصهاينة؟ من يجيبني عن هذه الأسئلة وأنا في مثل هذه الحالة؟ لا أدري! لكنَّ السؤالَ الأهم: كيفَ وصلتُ إلى هذا المكان، ومنذُ متى؟. يدخلُ الأستاذُ ماجد. يعانقني ويقبلني. أشعرُ أنه يعيدني من الموتِ إلى الحياة. لا أدري كيفَ اختلطتْ دموعُ الفرحِ بدموعِ الأسى والحزْنِ والألمِ. أطيرُ.. وكأنَّني أعانقُ جدِّي وأدخلُ روضة، لا أحلى ولا أجملَ، وأذوبُ في روحِهِ غمامةً ، تهطلُ مطراً غزيراً فوق حقلٍ أخضرَ، لا تحدُّهُ حدودٌ..

16

عزُّ الدين ومريم

أيقظني صوتٌ ملائكيٌ لطفلٍ وليدٍ. نَسَيتُ في البداية أنني في المشفى، مكسورَ اليَدِ، مُضَعْضَعَ الجسمِ . حاولتُ النهوضَ. أحبطَ الألمُ محاولتي. أدرتُ رأسي، فرأيتُ وليداً على يميني، يَتَمَلْمَلُ في مَهدِه. وآخرَ، يَتَنَهَّدُ مُغَرِّداً بصوتٍ ملائكي عَذْبٍ: (غا! غا!). هلْ أنا في حلمٍ؟ . كانتِ الساعةُ السادسةَ صباحاً. صوتُ المطرِ يصلُ إلى مَسْمَعي، لحناً بديعاً. يا إلهي! ما أجملَ الحياة! مطرٌ ينعشُ الروحِ، وتَغْريد طفلٍ وليدِ.

هَدْهَدَتْني أصابعُ الفرحِ، وراحتْ تعزفُ على صدري أنغاماً، طهَّرتني من الألم والأحزانِ. كلُّ ما أتمناهُ أنْ آخذَ هذين الطفلين، على عَرَبَةٍ صغيرةٍ، وأدورُ مَعَهُما في نُزْهةٍ قصيرةٍ، بينَ الأزهارِ والأشجارِ ؛ تحومُ حَوْلنا الطيورُ، منْ كلِّ حدبٍ وصَوْبٍ. ستأتينا العصافيرُ من أماكنَ بعيدةٍ، فقدْ أخبَرَني جدِّي أنْ الطيورَ تَعْشَقُ صوتَ الأطفالِ، وتَحِنُّ إليها وتَسْمَعُها من أماكنَ بعيدة. آهٍ يا جدي! خذْ هذين الوليدين في أحضانكَ، وعمِّدْهما بأنفاسِكَ الطاهرة ، وبشِّرْهُما بأيَّامٍ حلوةٍ، وبشِّرِ الطيورَ والغيومَ والبحارَ بهما. آهٍ يا جدي! لو فارقني نورُ عينيكَ، طَرْفَةَ عَينٍ، لَخَنَقَني الظلامُ والبردُ والألمُ. كأنَّكَ الآنَ إلى جانبي وأنا طفلٌ وليدٌ، تنظرُ إليَّ... تهطلُ دمعةُ فَرَحٍ من عينكَ على خدِّي. ارتعشُ كعصفورٍ بَلَّلَهُ

القَطْرُ. تهطلُ دمعة أخرى، فأطيرُ في سماءِ عينيك، وأغيبُ في الأفُقِ البعيدِ. لا تَقُلْ لي أني كنتُ في اليوم الأوَّلِ من عمري، لمْ أفقسْ من البيضةِ بعد، ولا أميِّزُ الألفَ من العصا. هلْ نسيتَ أَني حفيدُكَ.. والفَصيحُ من البيضةِ يصيحُ. أنظرُ، يا جدي إلى هذين الوليدين، وأصغي إلى حوارهما – ـ يغرِّدُ مَنْ على يميني فيُجيبهُ منْ على يساري. إنَّهُما يناديان جَدَيْهما، ليبارِكا ميلادِهِما، ويتمنيا لهما حياةً سعيدة. تُرى أينَ جداهما الآن؟؟ أينَ والداهما؟.... رعودٌ وبرْقٌ ومطرٌ غزيرٌ. ازدادتِ الحركةُ في المشفى. اقتربتْ عربةُ الطعامِ. حيَّتني المُمَرِضةُ نور التي تساعدُني على تناولِ طعامي، بابتسامةٍ مشرقةٍ، وراحتْ تداعبُ الوليدين بمرَحٍ دافقٍ. كانَ الوليدان ينظران إلى نور، ويتابعان حركاتها

بشيء من الدَهْشَةِ والفَرَحِ. قالتْ نورٌ: (وُلِدا بالأمس. توءمان. بنتٌ وَوَلَدٌ.. سبحانَ الله! قمران. اللهمَّ صل على النبي...) تذكرتُ تلك المرأةَ الحاملَ، التي رأيتُها، تَمْسَحُ العَرَقَ عنْ وَجْهي، وتَعْتَني بي في الليلةِ الماضيةِ. كانتْ نور تذوبُ مَرَحاً وسعادةً وهي تداعِبُهُما. قلتُ لها: (ظننتُهُما وَلَدَيْكِ..). شَهقتِ الممرضةُ نورٌ بفخرٍ: (كلُّنا أهلٌ. كلُّكُم أبنائي. والله كأني أنا التي وَلَدْتُهما...) سألتُها بفضولٍ: (كمْ ولد عندك، سلَّمهمْ الله؟). قالتْ وهي تَتَأمَّلُني بفرحٍ: (عندي ولدٌ بعمركَ. وَرَفَعَتْ يديها إلى الأعلى وهَتَفَتْ بلهفةٍ من أعماقِ قلبها: وفَّقَكُم الله وأطالَ أعمارَكم ، ونصرَكُمْ على الأوغادِ الصهاينة!!. يا رب!). لم أكنْ أشعرُ بأيَّةِ رغبةٍ في الطعامِ، وقد زادتْ رغبتي في الاسْتِماعِ إلى

المُمَرِضـةِ نـور. سـألتُها: (فقطْ؟! ولـدٌ واحـد؟). تناولـتْ طَبَـقَ الطعـامِ ومـلأتْ الملعقـةَ، ودسَّـتها برفْـقٍ فـي فَمـي وهي تتابعُ كلامَها، دونَ أن تريني عينيها، وقالتْ بفخرٍ يخـتلطُ بـألم وأسـى: (أنـا أمٌ لشـهيدين.. الحمـد لله علـى كَرَمِـهِ..) جـاءتْ ممرضـةٌ شـابةٌ، وأخـذتِ الوليـدَ الأوَّلَ، بعد أن اعتذرتْ مني:(.. لمْ نجدْ مكاناً أكثرَ أماناً، نضعُ الوليـدين فيـه، إلاَّ عنـدك . الحمـدُ لله. عـادتْ أمُّهمـا لوعيها وصحتها. سآخذهما.. لترضعهما.). هتفتْ نور: (إن شاء الله، ألف صحة!). لم تُتِحْ الممرضـةُ نور لـي فرصـةً لتوجيـه الأسـئلة ومتابعـة الحـديثِ معهـا، وهـي تـدعو لـي بالشـفاءِ والصـحة. جـاءتِ الممرضـةُ الشـابةُ وأخذتِ الوليدَ الثاني. تصورتُ المشهد وكأنِّي أراهُ بعيني – كيفَ ترى الأمُ وليدَها أوَّلَ مرة؟ وما هو طَعْمُ قُبْلةِ

الأمّ الأولى، على ثَغْرِ وليدِها، بعدَ حَمْلٍ طويلٍ وعذابٍ مَريرٍ، ومخاضٍ أليمٍ، قدْ تدفَعُ الأمُّ حياتها ثمناً لـه؟؟. رحمكِ الله يا أمّي، وطيَّبَ ثراك.

رأيتُ الأستاذَ ماجد أمامي. اقتربَ وراحَ يمسحُ دموعي بصمتٍ. ثم جلسَ إلى جانبي يسألُني مشجعاً: (خيرٌ! خيرٌ!.. أعرفُ أنَّك اشتقتَ إلي..) كانتِ العَبَراتُ تمنعني من الترحيبِ بالأستاذِ ماجد. إنَّه يُدركُ أنَّ كلَّ طفلٍ في فلسطين، يحملُ في قلبه جراحاً لا حَصْرَ لها. جراحٌ تَنْزِفُ وتئن، وتصرخُ، وتستجيرُ، وتحلُمُ، وتغنّي! نعمْ! جراحي تُغَنّي! وترقُصُ ؛ تحاولُ أنْ تَقْفِزَ فوقَ آلامها وأحزانها. قلتُ وأنا أبكي بمرارة: (أبكي.. من جراحي.. من... أبكي على.. أمي.. و.. ج- ..د.. ي..). شعرتُ بالمرارة تلمعُ في عين الأستاذ. كانَ

يمسحُ دموعي ، وهو غارقٌ في صَمْتٍ عميق. كأنَّه كان يسبحُ في بحرِ دموعي، يبحثُ في الأعماق، عن أسرارٍ دفينةٍ، وهو يقرأ حكايةً طويلةً لأطفالٍ يحلمونَ بربيعٍ دافئ. سألني بودٍّ: (منذُ متى وأنتَ تبكي يا أحمد؟). أجبتُ بعفويةٍ: (لم أبكِ في حياتي قطْ!). سألَ بتحدٍ: (وما هذه الدموعُ من عينيكَ، تسيلُ نهراً على خديكَ وتجري على نَحْرِك وصدرِك؟!). قلتُ وقد فاضَ قلبي فرحاً وحبوراً: (هذه دموعُ حبي لأمي وأشواقي إليها... دموعُ حنيني لجدِّي.. دموعُ فرحي بميلاد طفلين توءمين.. جميلين..)..هكذا بَرَّرتُ بكائي.. ثم قَصَصْتُ عليه قصةَ التوءمين.. وقبلَ أن أُنهي قصتي، وصلتِ الأمُّ، وهي تحملُ طفليها التوءمين. حيَّتنا، ثم وضعتْ واحداً على يميني، والآخر على يساري، وقالتْ: (لم

نسمِّهما بعد. اخترْ لهما الاسمِ الذي يعجبك.). نظرتُ إلى أستاذي، راجياً أن يحملَ عنِّي شرفَ هذه المهمة. أشارَ بسُبابته مُعْتَذِراً، مؤكِّداً: (من فمكَ أحلى يا أحمد.. ومنكمْ الخيرُ والبركةُ.). هَتَفْتُ: (عزُّ الدين!). تيمناً وإعجاباً بشيخِ المجاهدين وإمامهم القسَّام. ومريم! تخليداً لذكرى الجدَّة – زوجةِ رفيقه في النضال.. وأعني جدةَ أستاذي الحبيبِ ماجد.

19

قنديل جدي

لماذا لم أحكِ لكمْ حتىَّ الآنَ، عنْ قِنْديلِ جدّي؟؟ لقدْ أَنْسَتْني الأحداثُ، الكثيرَ مما أُحبُّ، حتىَّ قنديلَ جدي، الذي لمْ يُحب شيئاً في حياته، كما أحبَّ ذلكَ القنديلَ القديم، الذي يعملُ على زيتِ الكاز. وأذكُرُ أنَّنا كنَّا نستخدمُ أكثرَ من قنديلٍ في المنزلِ والبستان، عندما تنقطعُ الكهرباء عنا، لكنَّ جدي لم يكنْ يُحب إلاَّ قِنْديلهَ،

الذي رأيته يَدْخلُ به، حينَ جاءَ بالعصفورِ المُرَقَّطِ. كان يسمي قنديلَهُ (حبيبَ الروحِ)، ويُنَظِّفُهُ بعنايةٍ وحنانٍ، كما تنظِّفُ الأمُّ وليدَها البكرَ.. ثم يقبِّلهُ ويضمَّهُ إلى صدرِهِ، كما كان يعانقني ويضمُّني في صدرِه. لا شكَّ في أنَّه كان يثيرُ فضولي وغيرتي وغضبي أحياناً، حينَ كانَ يجلسُ إلى قنديلهِ ويسرحُ بأفكارِه، بعيداً عني. وكنْتُ أجلسُ، أرمُقُهُ من مسافةٍ قريبةٍ، وأتمنى لو أستطيعُ أنْ أُدخُلَ إلى أفكارِهِ، وأطوفُ معَها في فضاءِ الذكرياتِ، تُزَرْكِشُها وتلوّنها، طيورُ الأحلامِ السَّاحرةِ. كانَ يبتَسِمُ ويضحكُ ويبكي أحياناً.. وكانَ يغنّي طويلاً بصوتٍ مَهْموسٍ، فيأتيني صوتُهُ كصوتِ نايٍ حزينٍ، يحكي آلامَ البَشَرِ وأحلامَهم، عَبْرَ دروبهم الطويلة الشائكة. كان يغنّي لأمّه، ويُكثرُ ويُسْهِبُ في ذكرِ الوفاءِ والخيانة

والعهدِ والدِّيرةِ والأهلِ، قبلْ أنْ ينهضَ ويرفعَ يديْه إلى السَّماءِ، يدعو ويتضرعُ إلى الله. ثم يجلسُ على المصْطَبة وأنا إلى جانبه. عندئذ أشْعُرُ أنَّهُ صَعَدَ إلى قمَّةِ جبلٍ، بعدَ جهدٍ جهيدٍ ؛ وها هو يجلسُ الآنَ على قمَّةِ الجبلِ، يحتفلُ بانتصارِه أمامي. ثمَّ ينظرُ إليَّ ويهتفُ بكلِّ جوانحهِ: (.. أتَدْري أنك أذكى وأطيبَ كائن رأيتُهُ في حياتي؟).. ثم يعانقني، وهو يَتَغَنَّى: (حبيبُ الروح. أنت حبيب الروح!.). أسأله: (هل تحبُّ القنديلَ أكثرَ منِّي؟.. هل القنديلُ طيبٌ أيضاً وذكي؟) لا يجيب جدي. مازالَ غارقاً في صمته. أسألُهُ: (ماذا يعني ذكي؟ هلْ يستطيع الذكيُّ أن يطردَ الصهاينةَ من أرضنا؟؟.) أكررُ هذه الأسئلةُ غيرَ مرة، لكنَّ جدي لا يخرجُ عن صمته، وهو يحدِّقُ إليَّ، يَتَفَحَّصُني ؛ كأنَّه

يشجعني على طَرْحِ المزيدِ من الأسئلة. أصمتُ فينهرُّني بودٍّ: (مالكَ صامتٌ يا وَلَدُ.. حديثُ القلوبِ يُنْعِشُ الرُّوحِ ويحركُ الأفكارَ).أسألُه: (ماذا قلتَ يا جدي؟؟) فيكرِرُ وابتسامتُه المشرقَةُ ترِفُّ على محيَّاه: (حديثُ القلوبِ.. حديثُ القلوبِ.. ألمْ تسمع بحديثِ القلوبِ؟؟) أسألهُ ماذا تقصدُ يا جدِّي؟؟) فيشيرُ إلى قلبِه واضعاً كَفَّهُ اليمنى فوقَ كفه اليُسرى: (إذا كانَ القلب تماماً، غدا كلُّ شيء تماماً.) ثم يأخذني بمرَحٍ من يدي ويسيرُ بي مسرعاً إلى غرفة حيواناته، قبلَ أن يُتيحَ لي فرصةَ التفكيرِ بما قالَه لي. ومُنْذُ تلكَ الأيامِ أصبحتُ مساعدَهُ الأوَّلَ في عنايته بحيواناته التي تحتاج إلى مساعداتٍ وعنايةٍ خاصَّةٍ. في تلكَ المرَّة رأيتُ غزالةً فقدتْ إحدى قائمتيها الأماميتين. راقبْتُ جدي وهو يقومُ بمداواتها، لكنَّني كنتُ عاتباً

عليه، وأنا أسالُ نفسي: (متى جاءَ جدي بهذه الغزالة؟؟.. ولماذا لم يصْطَحِبْني معه؟). ومنذُ تلك اللحظةِ، بدأتْ أفكِّرُ كثيراً بتلك الغرفة الكبيرةِ التي يجْمَعُ فيها جدي العديدَ من الحيوانات، وأسألُ نفسي: (كيفَ يأتي جدي بهذه الحيواناتِ وكيفَ يعثَرُ عليها ومتى...؟) ذاتَ يومٍ، كنتُ أستعدُّ للنوم، وأميِّ إلى جانبي، تحكي لي إحدى حكاياتها الماتعة... رأيتُ جدي يَحْمِلُ قنديلَهُ ويَستعدُّ للخروجِ. انطلقْتُ خَلْفَه راجياً متوسِّلا أنْ يأخذُني معه، لكنَّهُ رفضَ اصطحابي: (أنتَ صغيرٌ.. وعليكَ أنْ تنامَ.. أنا أتأخَّرُ في العوْدَةِ.) لا أدري كيفَ سيْطَرَ عليَّ العنادُ، فانطلقْتُ إلى خارجِ الغرفة، ورحتُ أبتعدُ وأبتعدُ، وجدّي يحاوِلُ اللَّحاقَ بي وإمساكي. أخيراً وافقَ وهو يقولُ لي: (سآخذك معي..

وذنبُكَ على جنبك). وسارَ بي يمسِكُ يدي. رأيتُ القمَرَ، يبتَسِمُ لي من بين الأغصانِ، ويُهَنِّئَني فَرِحاً، برحلةٍ يَصْطَحبُني فيها جدي أوَّلَ مرة، في جولاته الليلية الطويلة. في تلكَ الليلةِ مَنَحَني جدي شرفَ حمْلِ قنديلِه الغالي. كيفَ أصِفُ تلكَ اللحظات وأنا أسمعُ من جدي تلكَ العبارةَ التي حملتُها وساماً رفيعاً على صدري: (أصبحتَ رجلاً يا أحمد! أحمِلِ القنديلَ وسرْ أمامي!) شعرتُ أني أصبحتُ شريكاً لجدي ورفيقاً. سألني: (أتذكرُ أنَّكَ ذاتَ يومٍ، وكانَ عمرُكَ لا يزيدُ عن ثلاث سنوات، وتَبِعْتَني دونَ أن يلحظَكَ أحدٌ.. وكانتْ الليلةُ مقمرةً تشبهُ ليلتنا هذه؟؟. فجأة سمعتُ صوت أمِّك يأتيني من بعيد. هرعْتُ تجاه الصوتِ، حتى رأيتُ أمَّك تتَّجِه إلي بكلِّ ما تملكُ من قوةٍ، وهي تصرخ، متَقَطِّعةَ

الأنفاسِ: (يا عمي! ضاعَ أحمدُ. كان نائماً إلى جانبي، استيقظتُ فلمْ أجدْهُ...) وراحتْ تبكي وتُوَلْوِلُ وتستغيثُ، وهي تكادُ تختنقُ من شدَّة الهَلَعِ. وبدأنا نبحثُ عنك. كنتُ مطمئناً إلى أنَّني سأجدُكَ سالماً معافى، لكنَّني كنتُ خائفاً على أمِّكَ من أن تموتَ رعباً. لم نترُكْ زاويةً لم نبحثْ فيها عنكَ. انهارتْ أمُّك ووقعتْ على الأرضِ. في تلكَ اللحظةُ سمعتُ صوتَك يأتيني من بعيد. ركضتُ باتجاه الصوتِ.. رأيتُك تسيرُ وتقفزُ؛ وإلى جانبكَ أفعى كبيرةٌ. عندما رأتني، رفعتْ رأسَها إلى الأعلى وبدأت تميسُ نحو اليمين ونحو الشمالِ، وإلى الأسفلِ والأعلى. رفعتُ القنديلَ إلى الأعلى فانْسَلَّتِ الأفعى ومضتْ في حالِ سبيلها.. وجئتَ تركضُ إلي. في تلكَ الليلةِ حمَّلتُكَ القنديل لأنِّي حملتُ أمَّك إلى

المنزلِ، وهي فاقدةُ الوعي. أوصلتُ أمَّك ووضعتُها على فراشِـها؛ واندسسـتَ إلـى جانبِهـا ونمتُمـا معـاً. وفـي الصباحِ، جلستْ أمُّكَ إلى جانبي تحكي لي أنَّها رأتك تضيعُ منها في المنام.. وتطلبُ مني تفسيرَ هذا الحلم المزعج. قلتُ لها إنَّ الأحلامَ المزعجةَ هي – كوابيسٌ، أراحنا الله من شرِّها، في اليقظةِ والمنام. والصهاينة يا أمِّ أحمد – هم الكابوسُ اللعينُ، خزاهم اللهُ . وأمام كوابيس الصهيونية، تهونُ كلُّ الكوابيس. وأسألُ نفسي الآن (ما الذي كان سيحدثُ لأمِّي لو رأتِ الأفعى إلى جانبي وأنا ألعبُ معها؟؟. أتذَكَّرُ الكثيرَ من هذه الأحداث. هذه أحلامٌ. وقدْ تختلطُ الأحلامُ بالحقيقة. وحتى الآن، كثيراً ما أرى نفسي ضائعاً، في حقلٍ واسعٍ، أبحثُ عن جدِّي، حتى أجده. والتفاصيلُ كثيرةٌ لا تُحصى ، وأذكرُ منها

الكثيرَ. إنَّها كالعناقيدِ تنتشرُ في كرومِ خيالي وذاكرتي. فهلْ ما أقصُّهُ عليكمْ الآنَ – كان حلماً أمْ حقيقةً، عشْتُها في الواقعِ، أمْ أنَّها من أزهارِ خيالي وغيومِ أفكاري ؛ وأنا مُسْتلقٍ هنا على هذا السريرِ في المشفى، أحلمُ بالشِّفاءِ والعودةِ إلى دارِ أبناء الشهداءِ، إلى جانبِ صديقيَّ عيسى ومهيار.؟

أحلامنا

...اجتمع شمل الأحباب، وعاد الجميع إلى دار أبناء الشهداء.. واهتموا بدروسهم، على الرغم من صعوبات الحياة ومشقتها...وبعد عدة أيام، دخل الأستاذ ماجد وبرفقته طفل، انضم إلى الصف الخامس.. وفرح الزملاء بانضمامه، وتفاءلوا به خيراً، عندما سمعوا باسمه الحبيب إلى قلوبهم، هو اسم عز الدين، وهو من أحفاد عز الدين القسام.. ولم تمضِ أيام إلاّ وأصبح أحمد وعيسى وعز الدين من أقرب وأحب

الأصدقاء... وكانوا يتحدثون في أوقات فراغهم عن أحلامهم في تحرير بلادهم من آثام الاحتلال الصهيوني البغيض لبلادهم.. وذات يوم جاءهم أحمد وفي يده موضوع كتبه بعنوان ((أحلامنا ونأمل تحقيقها)).. وقرأ أحمد على زملائه ما كتبه عن أحلامه وأحلام زملائه:

نحن أبناء شهداء فلسطين العربية، المقيمين في مدرسة أبناء الشهداء عز الدين القسام، نعبّر عن إيماننا بتحرير فلسطين من آثار العدوان الصهيوني، لنكون قوة لا يستهان بها، تحت راية العروبة التي نؤمن بها رمزاً لوحدتنا الوطنية والقومية...وسنعمل بكل ما نملك من جد واجتهاد لكي نحقق أحلامنا، مهما كانت العقبات والمصاعب...وعندما نحقق هذا الهدف العظيم،

سنمضي إلى مدينة جبلة، ونقيم في كل عام مهرجاناً وطنياً، احتفاءً بالمناضل عز الدين القسام، تكريماً لروحه الطيبة التي قدمت مثلاً أعلى في حبها العظيم لكل ذرة من تراب أمتنا العربية...أيها الأحباب كلنا عز الدين القسام.. كلنا جنود في جيوش عز الدين، نفتدي أوطاننا بأرواحنا، وبجهودنا وعلمنا، تقودنا أخلاقنا العربية العظيمة..))

وعندما انتهى أحمد من قراءة موضوعه، قام إليه عيسى وعانقه، وقال له بكل فخر: أتمنى أني كتبت هذه الكلمات التي أرى فيها أنها تعبّر عن أحلام أجيالنا القادمة.... فرد عليه أحمد: ((لقد كنت أنت شريكي في كتابة هذه الكلمات.. كنت أنت وعز الدين ومهيار كالنجوم حولي، تكتبون معي كل حرف، وكل كلمة..

فهذا النص لم ينبع إلا من نفوسنا التي تنبض بحب الوطن، ومن أخلاقنا العربية التي ترفض الضيم والاستكانة..))

قال عز الدين: هذه كلمات كالنجوم، تعبّر عن إيماننا بوطننا الحبيب فلسطين العربية....وسنقرأ هذه الكلمات في أول مهرجان وطني عن عز الدين القسام، نقيمه في مدينة جبلة، مسقط رأس القائد المجاهد عز الدين القسام.. وتعاهد الزملاء أبناء الشهداء، على أن تكون هذه الكلمات هي النجوم التي تنير طريقنا إلى تحرير فلسطين العربية من براثن الاحتلال الصهيوني البغيض...

رفع أحمد تلك الكلمات إلى الأعلى، وقال: ((يجب أن تزيدنا هذه الكلمات إيماناً وإقداماً واجتهاداً.. لكي

نكون أعلاماً في العلم المعرفة والاجتهاد.. وحب الوطن الذي ينبع من أخلاقنا ومبادئنا السامية...))

وقلوبنا مع أجيالنا القادمة لتحقيق أحلامنا وأحلام أجدادنا في تحرير كل شبر من تراب أمتنا العربية المجيدة..

حامل القنديل

ما زلتُ في المشفى. منذُ أسبوع، لم أرَ الممرضة نور. تساعدني الآن، ممرضةٌ أخرى، باسقة القوام، في تناولِ طعامي ودوائي. لم أرَ أجملَ من هذه الفتاة من قبل. يبدو عليها أنَّها تعطي عمَلِها كلَّ اهتمامها وجهدِها. لمْ تحاولْ فتحَ أيَّ حديثٍ معي. لمْ تسألني سؤالاً واحداً. اشتهيتُ أنْ أرى ابتسامتَها مرةً واحدةً. ظَنَنْتُها فتاةً آليةً. فمنْ يدري؟؟ ففي كلِّ يومٍ نسمعُ عن إنجازٍ علمي عجيبٍ لا يُصَدَّقُ، يفوقُ آفاقَ الخيالِ. وقدْ

أخبرَنا العلماءُ أنَّ الإنسان الآليَ، سيكونُ لهُ شأنٌ كبيرٌ في حياتنا. أظنُّ أنَّ الإنسانَ الآليَ لا يأكلُ ولا يشربُ ولا يتألمُ ولا يبتسمُ. لكنَّني رأيتُها صباحَ اليومِ تأكلُ برتقالةً، وهي مُنْهَمِكةٌ في عمَلِها، قَبْلَ أنْ تقدِّمَ لي طعامَ الإفطارِ. أمَّا طعامُ الإنسانِ الآلي وشرابُه – فبطَّاريات توضعُ في مكانٍ ما في جسمِهِ. قلتُ لها: (لا أرغبُ في تناولِ الطعامِ..) قالتْ: (لا يجوزُ.. يجبُ أن تتناولَ فطورِكَ..). سألتُها عنِ اسمها وأنا أحاولُ تصنُّعَ الرِقَّة والدماثةِ. فاجأها سؤالي وهي تنظرُ إلي كأنَّها تراني أوّلَ مرَّة .أجابتْ وظلَّ ابتسامةٍ خفيفةٍ يَخْفُقُ على شفتيها: (فارعة). قلتُ: (اسمٌ جميلٌ) وأضفتُ: (..سمعتُ بإنسان آلي يشبهُ الإنسانَ العاديَ تماماً... يُقالُ إنَّهُ سيعيش بيننا ؛ تَصْنَعُهُ المعاملُ، ليخدمَ البشرَ في جميعِ

المجالاتِ. ظَنَنتُ في البداية أنَّكَ ممرضةٌ آليةٌ يفاجئنا بها العلماء..) كتمتِ الممرضةُ ابتسامتها، وسألتْ بفضولٍ: (تظنُّ أنِّي ممرضةٌ آليةٌ؟ لماذا؟) قلتُ لأنَّ البشرَ جميعا يبتسمونَ، ولمْ أرَكِ تبتسمين مرةً واحدة. تنهدتْ بعمقٍ وقالتْ: (الحقُّ معك ما زلتُ جديدةً على العملِ.) ثم راحتْ تحثُّني على تناول إفطاري ؛ لكنَّني امتنعتُ بإصرار. قالتْ: (لا تكنْ عنيداً.. العنادُ عادةٌ سيئةٌ..) قلتُ: (إذا كان لكلِّ داءٍ دواءٌ.. فدوائي – ابتسامةٌ تُنْعِشُ الروحَ وتفرحُ القلبَ. ألا ترينَ أنني حزينٌ كئيبٌ أيضاً؟؟.. وكئيبٌ + كئيبة = مصيبة). لمْ أتوقعْ أنَّ عبارتي ستُضحِكُها إلى هذا الحدِّ. وقدْ بدتْ لي ضحكتُها أجْمَلَ من صاحبتها.) تأملتني، دونَ أن تفارقَ الابتسامةُ وجْهَهَا ثمَّ قالتْ: (يا حسرة! من سيعطينا

ممرضةً آليةً، ونحنُ بحسرة الدواء؟؟..). ولم تنقطعْ عنِ الابتسامِ، تارة، والضحكِ تارةً أخرى وهي تساعدني على تناول إفطاري، وتتأملني بفضولٍ. سألتني: (هل ارتحتَ؟.. ها قدْ ضحكتُ.. ماذا تريد أيضاً؟؟) قلتُ:(أينَ الممرضةُ نور؟؟) قالتْ: (..توفيتْ أمُّها.. العمرُ لكَ..). لمتُ نفسي على هذا السؤال. سأفكِّرُ طويلاً بالممرضة وأمِّها. وقدْ لا أنامُ اليومَ، والزمنُ في المشافي ثقيلٌ بليدٌ شائكٌ. فعندما أكونُ حزيناً، يبتعدُ عنّي النومُ، وتهجمُ عليَّ الذكرياتُ، لتلعبَ بي، كما الرِّياحُ بريشة شاردة، تأخذني حيث تشاءُ. سألتني: (ما لك؟؟ أراكَ عدتَ إلى الكآبة؟؟) قلتُ والمرارةُ تحرقُ صدري: (أعانَ اللهُ الخالةَ نور.. كمْ هي الحياةُ قاسية!.. ما أصعبَ فراقَ الأمِّ!..) قاطعتني: (نتحَمَّلُ قضاءَ الله،

مهما كان صعباً.. وتبقى الحياةُ جميلةً ورائعةً، إذا لم يدنِّسُها الأشرارُ بأعمالِهم القذرة. فماذا تقولُ فتاةٌ مثلي، عندما يأخذ الجنودُ الصهاينةُ زوجَها، وهي في ليلة عرسها، بعد كتب الكتاب مباشرة، ولا يتركونه – تتغلبُ فارعة على عَبَرَاتها–.. وهاهوذا مشلولٌ، فاقدَ الذاكرة، لا يتكلمُ.. ولا يتألم..) صَرَخْتُ دونَ وعي: (جريمة!! جريمة!) قالتْ وهي تمْسَحُ دموعَها: (أليستْ كلّ أعمال الصهاينة جرائم؟؟ جرائم من أحقرِ ما ارتكبَ الناسُ من جرا..) ثم استدركتْ: (من قالَ إنهم ينتمون إلى الناسِ؟. إنَّهم عارٌ في تاريخِ البشرِ!.. وأنتَ؟؟ من الذي جعلكَ قعيدَ هذا السرير، لا تقوى على الحركة؟؟ أليس هم الصهاينة الأشرار؟؟ من قتلَ..؟).. صرختُ بكلِّ ما أملكُ من قوة: (كفى! كفى! لا تخبريني شيئاً.. لا تقولي

إنَّ عيسى ومهيار قُتِلا! قولي إنهما من الأحياءُ في قلبِّ أحمد!.. وكفى!).. لكنَّ صوتي بقيَ في صدري.. ثم رفعتُ يديَّ إلى السماءِ وتضرَّعْتُ إلى الله: (اللهمَّ الحقني بعيسى ومهيار، أينما كانا..) واعتمتِ الدنيا في وجهي. من بعيد، جاءني بصيصٌ من نور؛ وبدأ هذا البصيص يكبرُ ويتَّسعُ ويكبرُ، حتَّى اتضحتْ صورةُ جدِّي، حاملاً قنديلَهُ الحبيبَ. وقفَ إلى جانبي وناولني قنديلَه الغالي. حملتُ القنديلَ، وسرنا معاً في بستاننا الكبير، نشقُّ دياجيرَ الظلامِ. لكنَّ الحزنَ والألمَ، كانا يضغطان على صدري بقوة. نَشَجْتُ من الألمِ. انحنى جدي وراحَ يحدِّقُ إليَّ. صرخَ في وجهي: (ما لكَ يا ولد؟! خائف؟! أتحملُ القنديلَ وأنتَ خائفٌ؟! وا حسرتاهُ على الرجال!. إياكَ أن تَخْنُقَ القنديلَ يا حاملَ القنديلِ.

ارفعْ قنديلكَ عالياً – منارةً وتاجاً وسَيْفاً!!..) رفعتُ القنديلَ كأنّي أُشْهِرُ سيفي لأقولَ للرفاقِ والأحبابِ وكلِّ أخيارِ الدنيا:(تقدموا! فالبحرُ من ورائكم والعدو من أمامكم.. فأين المفر؟؟..). بدأتْ دياجيرُ الظلامِ تهوي مضرَّجَةً بدمائها السوداء ؛ وتحترقُ بسهامِ قنديلِ جدي – كنَّا جيشاً عَرَمْرَماً – من الأطفالِ، بسيوفِ تُبْرِقُ وتُرْعِدُ وهي تطاردُ فلولَ الظلامِ، وأنا أسمعُ أصواتَ احتراقها كأنَّهُ حَطَبٌ يابسٌ تلتهمُهُ النيران.. ثمَّ يتطايرُ رمادُها معَ الريحِ. هيَّا يا جدِّي! سِرْ بنا.. لا تتوقفْ ؛ ها أنا أرفعُ قنديليَ عالياً، ليشرقَ كالشمسِ، في رحابِ الحياة. تميسُ الأشجارُ فَرَحاً، وتصفِّقُ الطيورُ فخراً واعتزازاً، وتصدحُ البلابلُ بأناشيدِ النصرِ، وتبتهجُ الغيومُ وهي تذوبُ غيثاً كريماً، يعانقُ مروجنا الخضراءَ، عناقَ

الأحبَّةِ بعدَ شوقٍ طويلٍ ؛ فترقصُ الأنهارُ نشوةً وحبوراً، بين الحقولِ والبساتين، ترِدّدُ مواويلَ جدي. أسمعُ صوتَ الأمطارِ، تعزُفُ ألحانَها على صدري، ثم تنحدر إلى عشبٍ أخضرَ، تطرّزُه الأحلامُ بأجمل الأزهار. ها هو بستانُنا الواسعُ الرحبُ، يحتضنُ الأرضَ من القطبِ إلى القطْبِ. جموعٌ لا حصرَ لها من البشرِ، تهتفُ بفخرٍ لقنديلِ جدي، وهي تحملني على أكتافِها. ومن بين الجموعِ، ينبعُ وجهُ فارعة، هاتفاً: (عاش!! عاش!! حاملُ القنديل!)

المحتوى

أطفال السماء 5
شدة وتزول 9
أحلامنا 16
.. وأنا ابن شهيد 23
رسالة إلى خالتي 30
ذكريات الجدة 39
وعْكَةٌ صحيةٌ 46
الطفل العجيب 53
لغة الغيوم 63
نهاية كل ظالم 72
عسكر وحرامية 81
رحيل الجدة 90
16 عزُّ الدين ومريم 98
19 قنديل جدي 106
أحلامنا 117
حامل القنديل 122

أطفال السماء: رواية للفتيان/ صبحي سعيد قضيماتي.
– دمشـــق: اتحـــاد الكتـــاب العـــرب؛ 2020. –
131ص؛ 20سم. – (سلسلة أدب الأطفال: 4).

1- 813.03 ط ق ض ي أ 2- العنـــــــــوان
3- قضيماتي 4- السلسلة
مكتبة الأسد